تجديد البيان في تقريب القرآن

الجزء 3

كتبه نورالدين

مقالات القرآن العظيم 36 | سورة الجنّ

سـورة "الجنّ" (قرابة الأربعين في ترتيب النزول التقريبي) هي فاتحة مرحلة جديدة، والمرحلة هي خروج النبيّ من مكّة داعيًا إلى الطائف، وتخبرنا المرويّات أنّه خرج بصـحبة مولاه زيد بن حارثة، وكان آنذاك لم يزل يدعى زيدًا بن محمّد، إذ لم يكن نزل القرآن في ردّه إلى أبيه كما نعلم، وهي تأتي لتضـيف بعدًا جديدًا ومثيرًا للخطاب القرآني في مرحلة الدعوة خارج مكّة. فبعد السور التي ركزت على الحجاج مع المشركين، وقصص الأنبياء السابقين، وأهوال القيامة، تأتي هذه السـورة لتقدم شـهادة فريدة من عالم آخر، عالم الجنّ، على صدق القرآن وعظمة تأثيره. إنّها تقدم رواية على لسان الجنّ أنفسهم، كيف استمعوا للقرآن، وكيف أثّر فيهم، وكيف أعلنوا إيمانهم وتبرّأهم من أعمال قومهم، وكيف فهموا التغيّرات الكونيّة المصاحبة للوحي الجديد. لعلّ هذه السورة كانت عزاءً للرسول بعد أن واجهه أهل الطائف بالرفض.

ونحن نعلم أنّ الأخنس بن شريق أحد عتاة كفّار مكّة كان من الطائف لكنّه مقيم في مكّة بسبب التجارة، فإذا كان يتردّد إلى الطائف، فقد يكون أنّه سـبق إليهم ذكر منه عن دعوة محمّد، وربّما لهذا السبب قوبل بالرفض والسخريّة. فجاءت السورة تعزية للرسـول، وسـنلاحظ في متنها أنّ الجنّ تتكلّم بطريقة عجيبة، وكأنّها بشر أو كأنّها تخاطب البشر على الأقلّ.

إضاءات لغوية

- **قل أوحي إليّ**: استخدام صيغة المبني للمجهول {أوحي} يفيد بأن مصدر الخبر هذا هو الوحي وحده ولا سبيل للرسول لمعرفته دون الوحي. والأمر للنبي {قل} يحدد مهمته في نقل هذا الخبر المحدد عن استماع الجن للقرآن وردة فعلهم.
- **نفر من الجن**: {نفر} يدل على جماعة قليلة العدد (من ثلاثة إلى عشرة). {الجن} من الجذر (ج ن ن) الذي يدل على الاستتار والخفاء، فهم خلق مستترون عن أنظار البشر. السورة تقدّم شهادتهم كما أوحيت للنبي، دون الدخول في تفاصيل ماهيّتهم أو عالمهم إلّا ما يخدم سياق الرسالة.
- **قرآنًا عجبًا**: وصف القرآن بأنه {عجبًا} أي مدهش ومثير للعجب في بلاغته وحكمته وتأثيره، وهو انطباع الجن عند سماعه، ولكنّهم سمعوا قولًا فسمّوه قرآنًا، وهذا يدلّنا على أنّ معنى كلمة قرآن هنا هي ما يُقرأ.
- **يهدي إلى الرشد**: {الرشد} هو الاستقامة والصواب وحسن التصرف والتفكير السليم. بيان وظيفة القرآن الأساسية وهي الهداية إلى الطريق القويم.

- **آمنّا به ولن نشرك بربنا أحدًا**: النتيجة المباشرة لسماع القرآن الهادي: الإيمان (بمعنى الاطمئنان لتصديقه والائتمان والدخول في عهد الأمان) مع إعلان البراءة التامة والمستقبلية {لن نشرك بربّنا} أي لن يكون ثمّة شريك لله في طاعتنا، وهم استخدموا كلمة "ربّنا"، وإقرار الربوبيّة هنا يعني أنّهم على معرفة مسبّقة به، ويعترفون بكونه راعيهم.
- **تعالى جد ربنا**: {تعالى} أي تنزه وارتفع وعلا شأنه. {جدّ ربنا} أي عظمته وجلاله ومكانته، ومنها جاء اسم الجدّ والد الوالد لتعظيمه. تعظيم لله وتنزيه له.
- **ما اتخذ صاحبة ولا ولدًا**: نفي قاطع للصورة الشائعة للشرك المتمثلة في نسبة الزوجة {صاحبة} أو الولد لله تعالى، وهو تأكيد على تفرده ووحدانيّته المطلقة.
- **سفيهنا**: أي جاهل أو أحمق منّا، ذلك الذي تجاوز الحد في القول. اعتراف بوجود ضلال وسفاهة في مجتمع الجن أنفسهم.
- **شططًا**: أي قولًا متجاوزًا للحدّ، بعيدًا عن الحق والصواب، فيه غلو أو إفراط. وصف لكلام السفيه عن الله.

- **وأنّا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبًا**: اعتراف الجن بأنهم كانوا يظنون في الماضي (قبل سماع القرآن) استحالة أن يكذب أحد (إنسًا أو جنًا) على الله، مما جعلهم ربما يتقبلون بعض الأقوال الشركية المنسوبة لله زورًا. {ظننا} هنا بمعنى الاعتقاد السابق الخاطئ.

- **رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقًا**: وصف لممارسة جاهلية كان فيها بعض الإنس يستجيرون ويطلبون من الجنّ الحماية {يعوذون} (أي عند نزولهم بمكان موحش مثلًا، فكانوا يطلبون الأمان من ساكنيه من الجنّ). النتيجة كانت عكسية: {فزادوهم رهقًا} أي زاد الجنُّ الإنسَ ظلمًا وطغيانًا أو إثمًا وخوفًا ومشقةً، ولم يزيدوهم أمنًا. فضح لخرافة الاستعاذة بالجن وبيان ضررها.

- **وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدًا**: بيان لوجود قاسم مشترك في الضلال بين بعض الجن وبعض الإنس ممّن يعتادون هذه العادة، أي الاستعاذة بالجنّ، إنكار البعث في الآخرة أو إنكار إرسال الرسل.

- **وأنّا لمسنا السماء**: {لمسنا} أي حاولنا الاقتراب من السماء أو فحصناها وطلبنا أخبارها.

- **فوجدناها ملئت حرسًا شديدًا وشهبًا**: اكتشافهم لتغير الأوضاع في السماء بعد نزول القرآن، حيث أصبحت محروسة بشدة {حرسًا شديدًا} ومحميّة بالشهب (والشهاب معروف وهو جسم مضيء متحرّك بسرعة).
- **وأنّا كنا نقعد منها مقاعد للسمع**: إقرارهم بأنهم كانوا في الماضي يتمكنون من الجلوس في أماكن معينة في السماء لاستراق السمع.
- **فمن يستمعِ الآن يجد له شهابًا رصدًا**: بيان للوضع الجديد: أي محاولة للاستماع الآن تقابل بشهاب مترصد له بالمرصاد {رصدًا} يمنعه ويحرقه. وهذا يقطع الطريق على الكهان والمتنبئين الذين كانوا يدّعون تلقي الأخبار من الجن. ولنلاحظ أنّ كلمة رصد قرآنيًّا كانت ضدّ الجنّ لا معهم كما تستخدم اليوم.
- **وأنّا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدًا**: اعتراف الجن بجهلهم للغاية الحقيقية من وراء هذا التغيير (حراسة السماء)، هل هو مقدمة لعذاب {شر} أم إرادة للهداية والرشاد {رشدًا}؟ وهذا يظهر محدودية علمهم بالغيب الإلهي.

- **وأنّا منا الصـــالحون ومنا دون ذلك كنّا طرائق قددًا**: إقرار بوجود التنوع والاختلاف بينهم؛ فمنهم الصـــالحون ومنهم من هم أقل من ذلك، وأنهم كانوا جماعات متفرقة ذات مذاهب مختلفة {طرائق قددًا} أي ليسوا على ملّة واحدة، والقدد أجزاء متمزّقة.
- **وأنّـا ظننـا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربًا**: الآن هم يبيّنون سـبب تصـديقهم ودخولهم في الدعوة، يقولون {ظننـا} أي علمنـا بقدرة الله المطلقة وسلطانه الشامل، وأنه لا يمكن لأحد منهم أن يفلت من قدرته لا بالبقاء في الأرض ولا بالهرب منها.
- **وأنّا لما سـمعنا الهدى آمنا به**: تكرار للتأكيد على الأثر المباشـر لسـماع الهدى (القرآن) في إيمانهم (والإيمان كما شـرحنا). وهذا يورده القرآن ليدلّ المشركين على السلوك السليم.
- **فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسًا ولا رهقًا**: بيان لثمرة الإيمان: الأمان التام من أي نقص في الجزاء أو ظلم {بخسًـا} ومن أي مشـقة أو إذلال أو عقوبة متعبة {رهقًا}، وهذا من جهة يتحدّث عن الجنّ أنفسهم، لكنّه بصيغته المطلقة إخبار غيبيّ بتحصين من يقبل بدعوة محمّد إلى الإيمان من قوّة الجنّ أيضًا.

- **وأنّا منا المسلمون ومنا القاسطون**: القسوط الجور والإقساط العدل في لغة العرب، وأقسط فهو مقسط أي عادل، وقسط فهو قاسط أي جائر ظالم. وعلينا أن نلاحظ هنا أنّ هذه هي المرّة الأولى التي ترد فيها مفردة مشتقّة من الإسلام، والمسلم هو من يسلم الآخرون منه. أي إنّ منّا من يسلم الناس منهم ومنّا من يجور على الآخرين، وهي حتّى الآن لم تكن اسمًا لرسالة محمّد. أمّا نحن هنا فقط تعود على الإنس والجنّ معًا، كما تشي الآيات اللاحقة.
- **فمن أسلم فأولئك تحرّوا رشدًا**: الذين اختاروا ألّا يؤذوا الآخرين فقد بحثوا عن طريق الرشد.
- **وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبًا**: مصير المنحرفين عن الحق أن يكونوا وقودًا لجهنم. وهنا علينا أن ننظر في ماهيّة الجنّ حسب القرآن، فهم خلقوا من نار، والنار قد لا تكون مرعبة لهم كما هي مرعبة للبشر، وهذا إمّا أن يكون تنزّلًا على لغة البشر، أو أن تكون كلّ الآيات المخبرة عن الغيب الذي لا يمكن إدراكه ولا مفردات لوصفه من المجاز. إنّ هذه الآيات وما هو مثلها ممّا سيأتي بعدها لهي دعوى للتأمّل في أنّ الكلام موجّه لأهل مكّة من جهة، وأنّ المعنى المقصود هو العذاب والرخاء، وأنّ التفاصيل ليست هي المراد.

- **وألّو اســـتقاموا على الطريقة لأســـقيناهم ماء غدقًا**: {ألّو} أصـــلها "وأن لو". شـــرط مقترن بجواب مؤكد باللام: لو أنهم (القاسطين) استقاموا على طريقة الحق (وهذا هو أســـاس الإســـلام والتقوى وهو تحرّي عدم الأذى)، لوســـع الله عليهم في الرزق {ماء غدقًا} أي كثيرًا واســـعًا. ربط بين الاســـتقامة والرخاء الدنيوي، ومن الواضـــح أنّ هذا الكلام موجّه للبشـــر، فهم الذين يحتـاجون المـاء الغـدق، أو أنّهـا تعبير مجـازيّ عن الرخاء في الحياة. وهنا ثمّة التفات فالمتحدّث هنا هو الله، فهو الذي يسقي الماء.
- **لنفتنهم فيـه**: الغـايـة من هـذا الرخـاء هي الاختبـار والابتلاء {لنفتنهم}، هل سيشكرون أم سيطغيهم ذلك؟
- **ومن يعرض عن ذكر ربه يســـلكه عذابًا صـــعدًا**: في المقابل، الإعراض عن ذكر الله يؤدي إلى عذاب شـاق متصـــاعد {صـــعدًا}. وقد وردت كلمة ربّه في ســـياق العذاب لأنّها مرتبطة بذكر ربّه.
- **وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدًا**: تأكيد على أن أماكن العبادة والســـجود {المســـاجد} يجب أن تكون خالصـــة لله، فلا يجوز دعاء أو عبادة أحد معه فيها.

ترسيخ للتوحيد في مكان العبادة، وهذا إحالة واضحة إلى مكّة.

- **وأنه لما قام عبد الله يدعوه**: الإشارة إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم {عبد الله} وهو قائم يصلي ويدعو ربه، أو أي مصلح بصورة عامّة.
- **كادوا يكونون عليه لبدًا**: كاد الناس أن يتراكموا ويزدحموا عليه {لبدًا} طبقات بعضها فوق بعض، إما تعجبًا من صلاته وقراءته، أو حرصًا على سماع القرآن، أو ربما محاولة لإيذائه ومنعه (وإن كان السياق يرجح الأول أو الثاني بعد إيمان الجن).
- **قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدًا**: أمر للنبي بإعلان موقفه التوحيدي الخالص ردًا على الشركاء أو على محاولات التأثير عليه.
- **قل إني لا أملك لكم ضرًا ولا رشدًا**: إعلان النبي عن بشريته وأنه لا يملك لنفسه فضلاً عن غيره جلب نفع أو دفع ضر أو هداية، فالأمر كله بيد الله.
- **قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا**: اعتراف النبي بحاجته هو نفسه إلى الله، وأنه لا أحد يستطيع حمايته {يجيرني} من الله إن أراد به سوءًا، وأنه لا ملجأ ولا مهرب {ملتحدا} إلا إليه.

- **إلا بلاغًا من الله ورسالاته**: استثناء يحدد مَهمّة النبي: مهمتي فقط هي تبليغ الرسالة من الله.
- **ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدًا**: وعيد شديد لمن يعصي الله ورسوله بالخلود الأبدي في النار، وهنا فالرسول مضاف إلى الله، فالعصيان في أصله عصيان لله.
- **حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرًا وأقل عددًا**: عندما يرون العذاب الموعود، سيعلم المكذبون حينها من هو الأضعف نصرة والأقل عددًا (هم أم المؤمنون وأولياؤهم؟).
- **قل إن أدري أقريب ما توعدون أم يجعل له ربي أمدًا**: أمر للنبي بأن يعلن عدم علمه بوقت وقوع العذاب الموعود، هل هو قريب أم أن الله جعل له زمنًا ممتدًا {أمدًا}. تفويض العلم بالساعة لله.
- **عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدًا إلا من ارتضى من رسول**: تقرير لمبدأ اختصاص الله بعلم الغيب، وأنه لا يُطلع عليه أحدًا إلا من يختاره ويرضاه من الرسل بالقدر الذي تقتضيه الرسالة.
- **فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدًا**: بيان لكيفية حفظ الوحي أثناء نزوله على الرسول المرتضى؛ فالله

يجعل له حرسًـــا {رصـــدًا} من الملائكة يحفظونه من الأمام ومن الخلف من أي تحريف أو تدخل شيطاني.

- **ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم**: الغاية من هذا الحفظ هي أن يعلم الله علمًا ظاهرًا متحققًا أن الرسل قد بلغوا رســـالات ربهم كاملة كما أُنزلت، أو ليعلم الرســـول والمؤمنون ذلك فيطمئنوا.
- **وأحاط بما لديهم وأحصـــى كل شـــيء عددًا**: هذه الآية تحتمل معنيين، أوّلًا: تأكيد على علم الله الشامل بكل ما لدى الرسل والمكلفين، وإحصائه الدقيق لكل شيء في الكون، ختام يؤكد كمال علم الله وقدرته وســـلطانه. ثانيا: أنّ الله غالب لما لهم من قوّة، وقوّته فوق كلّ قوّة، فهذا معنى الإحاطة أيضًا. وكلمة أحصى مرتبطة بالحصى أي جعل حصاة مقابل كل شيء، وهذه كانت من الطرق القديمة في العدّ.

مقالة السورة (الجنّ)

يأمر الله نبيه أن يخبر قومه بأمرٍ عجيب أوحاه إليه: أن جماعة قليلة من الجنّ {نفر من الجن} قد اســـتمعت إليه وهو يتلو القرآن، فلما ســـمعوه أدهشـــهم ما فيه وقالوا لقومهم: {إنّا ســـمعنا قرآنًا عجبًا}، أي كلامًا مقروءًا بلغ الغاية في التأثير

وإثـارة العجـب. وأدركوا فورًا أن هـذا القرآن {يهـدي إلى الرشـــد}، أي إلى الصـــواب والاســـتقامة، فكانت نتيجتهم المباشـــرة {فآمنّا به}، وأعلنوا التزامهم المطلق بالتوحيد ونبذ الشرك تمامًا {ولن نشرك بربنا أحدًا}.

ثم يستطرد الجن في بيان ما تعلّموه وعرفوه بعد هذا الإيمان: لقد أدركوا عظمة الله وجلاله {تعالى جد ربنا}، ونزهوه عن كل ما نسبه إليه السفهاء من قبلهم، كأن يتخذ زوجة {صاحبة} أو {ولدًا}. واعترفوا بأن بعضهم {سفيهنا} كان يقول على الله قولًا متجاوزًا للحد في البعد عن الحق {شططًا}. وكشفوا عن سبب وقوعهم أو وقوع غيرهم في الشرك سابقًا، وهو ظنهم الساذج بأنه لا يمكن لأحد، إنسًا كان أو جنًا، أن يكذب على الله {وأنّا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبًا}. ثم فضحوا ممارسة جاهلية وهي استعاذة بعض البشر بالجن، مؤكدين أن هذه الاستعاذة لم تزد البشر إلا ضلالًا وخوفًا {فزادوهم رهقًا}. وأشاروا إلى أن هؤلاء الضالين من الإنس والجن يشـــتركون في ظن باطل آخر وهو إنكار البعث أو الرســـالة {وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدًا} (ولنا أن نذكّر أنّ إنكار البعث والبعثة مرتبطان).

ثم يصف الجن محاولاتهم السابقة لاستراق خبر السماء، فيقولون إنّهم التمسوا أمر السماء، فوجدوها الآن، بعد نزول القرآن، قد مُلئت بالحرّاس الأشدّاء والشهب الحارقة {ملئت

حرسًا شديدًا وشهبًا}، بعد أن كانوا يتمكنون من القعود في أماكن منها للسمع {وأنّا كنا نقعد منها مقاعد للسمع}. وأكّدوا أن الوضع قد تغيّر تمامًا، فمن يحاول الاستماع الآن يجد له شهابًا مترصدًا {شهابًا رصدًا}، قاطعين بذلك الطريق على الكهانة وادعاء علم الغيب. ومع ذلك، أقروا بجهلهم بالغاية الإلهية الكبرى من هذا التغيير الكوني، هل هو إنذار بعذاب أم مقدمة لهداية؟ {وأنّا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدًا}.

بعد ذلك، يعترف الجن بالتنوع بينهم، فمنهم الصالحون ومنهم ما دون ذلك، وأنهم كانوا فرقًا ومذاهب شتى {طرائق قددًا}. لكنهم أجمعوا، بعد سماع الهدى، على حقيقة يقينية: هي إدراكهم لقدرة الله المطلقة وأنه لا مهرب منه ولا ملجأ {وأنّا ظننا أن لن نعجز الله...}. ولهذا، كرروا إعلان إيمانهم الفوري بالقرآن بمجرد سماعه {وأنّا لما سمعنا الهدى آمنا به}، مقدمين أنفسهم مثالًا يحتذى به. وأوضحوا أن ثمرة هذا الإيمان هي الأمن التام من أي ظلم أو نقص في الجزاء أو مشقة زائدة {فلا يخاف بخسًا ولا رهقًا}، ويشمل ذلك الأمن من تسلّط الجن أنفسهم إن كان ذلك ممكنًا.

ثم يقدّمون التقسيم الأساسي الناتج عن استقبال الهدى: {وأنّا منا المسلمون ومنا القاسطون}، فمن اختار طريق الخضوع لله والسلام مع خلقه {أسلم} (ولم يكن اسم الإسلام مستخدمًا

حتّى نزول السورة) فقد قصد وبحث عن الرشد والصواب {تحروا رشدًا}، أما من اختار الجور والانحراف عن الحق {القاسطون} فمصيره أن يكون وقودًا لجهنم {حطبًا}. ويأتي بعد ذلك التفات في الخطاب (من الله تعالى غالبًا) ليقرر سنة كونية: أن الاستقامة على الطريقة الحقّة سبب للرخاء وسعة الرزق {لأسقيناهم ماء غدقًا}، ولكن هذا الرخاء نفسه هو فتنة واختبار {لنفتنهم فيه}، وأن الإعراض عن ذكر الله عاقبته عذاب شاق متصاعد {عذابًا صعدًا}.

وتنتقل الآيات لترسيخ مبادئ التوحيد الخالص في العبادة {وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدًا}. وتصف مشهدًا ربما شهده الجن أو أُوحي به للنبي: وهو قيام {عبد الله} (النبي محمد) داعيًا لربه، وكيف كاد الحاضرون أن يتزاحموا ويتراكبوا عليه {لبدًا} محاربة أو اهتمامًا. ويأتي الأمر الإلهي للنبي ليعلن مجدّدًا جوهر دعوته: {قل إنّما أدعو ربي ولا أشرك به أحدًا}، وأن يؤكد بشريّته ونفيه لامتلاك أي قدرة ذاتية على جلب النفع أو دفع الضر أو تحقيق الهداية للناس {قل إني لا أملك لكم ضرًّا ولا رشدًا}، بل إنه هو نفسه لا يجد حماية أو ملجأ من الله إلا بالله {قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا}. فمهمته تنحصر في التبليغ {إلا بلاغًا من الله ورسالاته}. ثم يأتي الوعيد لمن يعصي الله ورسوله بالخلود الأبدي في النار.

وتخاطب السورة المكذبين بأنهم عندما يرون العذاب الموعود سيدركون حقيقة ضعفهم وقلة عددهم ونصرائهم. ويُؤمر النبي بأن يعلن جهله بوقت وقوع هذا الوعد، هل هو قريب أم أن الله جعل له أجلًا ممتدًا {أمدًا}. فالأمر مردّه إلى الله وحده {عالم الغيب} الذي لا يُطلع على غيبه أحدًا {إلا من ارتضى من رسول يرسله بذلك الغيب لنبيّ أو للناس}، ويؤكد الله كيفية حفظه لهذا الوحي المنزل على رسوله المرتضى بحراسة مشددة {رصدًا} من أمامه ومن خلفه، لضمان وصول الرسالة كاملة كما أرادها {ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم}. وتختم السورة بالتأكيد المطلق على إحاطة علم الله بكل شيء وإحصائه الدقيق لكل صغيرة وكبيرة {وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددًا}، وكذلك على إحاطة الله بهم أي سيطرته عليهم.

المعنى الشمولي (الجنّ)

تقدم سورة الجن شهادة فريدة من عالم آخر على صدق القرآن وقوة تأثيره، تمثل حجة على الإنس وعزاءً للنبي بعد رحلته التي لقي فيها ما لقي من عنت. تنقل السورة خبر استماع نفر من الجن للقرآن وإعجابهم الفوري به {قرآنًا عجبًا}، وإدراكهم أنه {يهدي إلى الرشد}، مما دفعهم للإيمان الفوري ونبذ الشرك {آمنّا به ولن نشرك بربنا أحدًا}. وتعرض السورة تصحيح الجن لمعتقداتهم السابقة

ولممارسات بشرية خاطئة كالاستعاذة بهم، واعترافهم بجهلهم وبقدرة الله المطلقة التي لا يمكن إعجازها، مقدمين أنفسهم كنموذج للاستجابة الفورية للهدى.

كما تبين السورة انقسام الجن أنفسهم، كما هو حال الإنس، إلى {المسلمون} الذين اختاروا الخضوع لله والسلام مع خلقه وسعوا بوعي نحو الرشد {تحروا رشدًا}، وإلى {القاسطون} الجائرون المنحرفون عن الحق الذين مصيرهم أن يكونوا وقودًا لجهنم. وتربط السورة بين الاستقامة على الطريقة والرخاء الدنيوي كفتنة واختبار، وبين الإعراض عن ذكر الله والعذاب المتصاعد، مؤكدةً على ضرورة إخلاص العبادة لله وحده في أماكن السجود {المساجد}.

وتختتم السورة بتحديد دقيق لمهمة النبي صلى الله عليه وسلم، فهو {عبد الله} القائم بدعوته، ومأمور بأن يعلن توحيده الخالص ونفيه لامتلاك أي نفع أو ضر أو علم بالغيب، وأن مهمته تنحصر في البلاغ عن الله {إلا بلاغًا من الله ورسالاته}. وتؤكد على اختصاص الله المطلق بعلم الغيب ووقت الساعة، وحفظه لوحيه ورسله، وإحاطته بكل شيء علمًا وإحصائه الدقيق لكل أمر {وأحصى كل شيء عددًا}.

مقالات القرآن العظيم 37 | سورة يس

تأتي سورة "يس" (قرابة الواحدة والأربعين في ترتيب النزول)، وهي قلب القرآن كما ورد في بعض الآثار، لتمثل مرحلة نضج وتكثيف للخطاب المكّيّ. بعد الجدال المفصّل والسرد التاريخيّ الواسع في سور كسورة "ص" و"الأعراف" لتقديم إنذار بمصير أمم سابقة، وبعد سورة الجنّ الّتي قدّمت قدوة من عالم خفيّ، تأتي "يس" لتركز على المحاور الأساسية للدعوة حتّى ذلك الحين: تأكيد صدق الرسالة والقرآن، إثبات حقيقة البعث والجزاء ودحض شبهات المنكرين، عرض آيات الله في الكون والأنفس، وتقديم قصة للاعتبار بها (أصحاب القرية) لتثبيت المؤمنين وإنذار المكذّبين. إنها سورة تجمع بين بلاغة الحجة وجمال البيان وتأثير الإيقاع، وتخاطب القلب والعقل معًا.

إضاءات لغوية

- **يس**: من الأحرف المقطّعة، يتأكّد لدينا أنها للتنبيه وللإشارة لمادّة القرآن وهي الحروف، وأنّ لها علاقة بمضمون الآيات اللاحقة الّتي تتحدّث عن القرآن.
- **والقرآن الحكيم**: قسم بالقرآن الموصوف بأنه حكيم أي محكم ومتقن في ألفاظه ومعانيه وأحكامه، أو أنّه ذو حكمة بالغة.

- **إنّك لمن المرسلين على صراط مستقيم**: جواب القسم، وهو شهادة إلهية بصدق رسالة النبي محمد صلى الله عليه وسلم وأنه على الطريق القويم الذي لا اعوجاج فيه.
- **تنزيل العزيز الرحيم**: هنا تأتي قضيّة إعرابيّة وهي أنّ تنزيل هنا هي نصب على الاختصاص وتعود على القرآن. وهنا يظهر تداخل الجملة القرآنية الذي ذكرناه من قبل.
- **لتنذر قومًا ما أنذر آباؤهم فهم غافلون**: بيان وظيفة الإنذار الموجه لقوم (قريش ومن حولهم) لم يأتهم نذير في أزمنتهم القريبة، وهم قوم بلا كتاب "أمّيّون"، فكانوا يعيشون في غفلة عن الهدى. {ما} هنا نافية، فهل إذا أنذر آباؤهم لن يكونوا غافلين؟ في الحقيقة هي ليست تصنيفًا بهذا المعنى لكنّها تفهّم لحالهم.
- **لقد حق القول على أكثرهم**: لقد ثبت وتحقق قضاء الله وحكمه (بالعذاب أو بالخذلان) على أصحاب الرأي الغالب فيهم (أكثرهم)، بسبب إصرارهم على الكفر.
- **إنا جعلنا في أعناقهم أغلالًا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون**: تصوير بلاغي لحال المكذبين المعاندين؛ فكأن على أعناقهم قيودًا ثقيلة {أغلالًا} تصل إلى

ذقونهم {الأذقان}، مما يجبر رؤوسهم على الارتفاع كأنّها سنابل القمح {مقمحون}، وهي كلمة عربية تقال في البعير إذا رفع رأسه، فلا يستطيعون خفضها تواضعًا للحق أو النظر إلى آيات الله بتدبر. كناية عن موانع الإيمان المتعلّقة بالاستكبار.

- **وجعلنا من بين أيديهم سدًا ومن خلفهم سدًا فأغشيناهم فهم لا يبصرون**: استكمال للصورة؛ فهم محاطون بحواجز {سدًا} من أمامهم ومن ورائهم، وقد غُطيت أبصارهم {فأغشيناهم}، فهم معزولون تمامًا عن رؤية طريق الهداية.

- **وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون**: بيان لحالة اليأس من إيمان هؤلاء الذين حقت عليهم كلمة العذاب وختم على قلوبهم وأبصارهم، وهنا يبلغ اليأس من كبراء قريش آخره.

- **إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب**: حصر للنفع الحقيقي بالإنذار؛ فهو يؤثّر فقط فيمن لديه استعداد لاتباع القرآن {اتبع الذكر} ويخشى الله {بالغيب} رغم أنّه ليس له سبيل للتحقّق منه.

- **إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدّموا وآثارهم**: تأكيد على قدرة الله على البعث {نحيي الموتى}، وعلى

الإحصـــاء الدقيق للأعمال التي فعلوها في حياتهم {ما قدموا} وما تركوه من سنن حسنة أو سيئة بعد مماتهم {وآثارهم}. وقد ذكر لها سبب نزول ضعيف المبنى لا يوافق شرط اللغة.

- **وكل شـيء أحصـيناه في إمام مبين**: كل شـيء معدود ومضـبوط ومسـجل في كتاب واضـح بيّن {إمام مبين} وهنا الكلام عمّا يكتبه الله من أعمالهم، وليس كما فهم كثير من المفسّـــرين أنّـه لوح فيـه أعمـالهم قبـل أن يعملوها.
- **واضـــرب لهم مثلًا أصـــحاب القرية**: أمر للنبي بتقديم قصة أصحاب القرية كنموذج وعبرة.
- **إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث**: إرسـال الرسـل متتابعًا، وتقوية الدعوة برسـول ثالث {فعززنا بثالث}، هنا يقول الله أنّ قرية ما طلبت تأكيدًا فأكّد الله لهم بأن أوحى لآخر منهم، ومع ذلك لم يصدّقوا.
- **ما أنتم إلا بشـر مثلنا وما أنزل الرحمن من شـيء إن أنتم إلا تكـذبون**: الشـــبهـة المكررة للمكـذبين عبر التاريخ: استبعاد أن يكون الرسول بشرًا، وإنكار أصل الوحي، واتهام الرســـل بالكذب، فهم يطلبون أن يروا

ملاكًا فيكونوا كلّهم موحًى إليهم! استخدام اسم {الرحمن} هنا قد يكون لافتًا إذا كان القوم ينكرونه.

- **قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون**: رد الرسل بالاكتفاء بعلم الله كشهادة على صدقهم، مع تأكيد رسالتهم باللام.
- **وما علينا إلا البلاغ المبين**: تحديد مهمة الرسل بأنها التبليغ الواضح فقط، وليس إجبار الناس على الإيمان. وهذه إشارة للرسول، بأن يؤدّي مهمّته وهي حسبه.
- **قالوا إنا تطيرنا بكم**: تشاءموا بهم ونسبوا إليهم ما قد يصيبهم من سوء. {تطيرنا} من الطيرة وهي التشاؤم، وقد كان العرب يظنّون أنّ حركة الطير يمينا أو شمالًا تعني فألًا حسنًا أو سيّئًا.
- **لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم**: تهديد صريح بالقتل رميًا بالحجارة {لنرجمنكم} وبالتعذيب المؤلم.
- **قالوا طائركم معكم**: تشاءموا كما تريدون، أو أنّ ما يصيبكم من سوء هو بسببكم.
- **أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون**: أتتشاءمون بسبب أنا ذكرناكم بالحق؟ هذا توبيخ لهم، وبيان أن سبب موقفهم

هو إســـرافهم وتجاوزهم الحد في المعصـــية والكفر {مسرفون}.

- **وجاء من أقصـــى المدينة رجل يســـعى**: ظهور مؤمن يكتم إيمانه (على الأرجح)، يأتي مســـرعًا من أطراف المدينة لنصرة الرسل.
- **اتبعوا من لا يســـألكم أجرًا وهم مهتدون**: هذا قول الرجل، وحجّته في دعوة قومه لاتباع الرســـل: لا يطلبون منفعة دنيوية {أجرًا}، وهم على هدى واضـــح {مهتدون}.
- **وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون**: حجته الشـــخصـــية للإيمان: عبادة الخالق المبدع {فطرني} الذي إليه المرجع والمآل.
- **أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضـــر لا تغن عني شفاعتهم شيئًا ولا ينقذون**: تفنيد منطقي للشرك: هذه الآلهة المزعومة عاجزة تمامًا عن دفع الضـــر أو جلب النفع أو الشـــفاعة أو الإنقاذ إذا أراد {الرحمن} (لاحظ استخدام اسم الرحمن مجددًا) بالإنسان ضرًا.
- **إني آمنت بربكم فاسمعون**: إعلان إيمانه الصريح أمام قومه، داعيًا إياهم لسماع شهادته.

- **قيل ادخل الجنة**: قيل له بعد قتله واستشهاده (كما هو مفهوم من السياق): ادخل الجنة تكريمًا له.
- **قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين**: أمنيته وهو في الجنة بأن يعلم قومه بحاله وما ناله من مغفرة وإكرام، لعلهم يؤمنون. تظهر حرصه على هدايتهم حتى بعد موته.
- **وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين**: ومن بعد هذا الرجل وهو الشاهد الرابع على صدق الرسالة بعد الأنبياء الثلاثة، لم ينزل الله ملائكة عليهم، حتّى لا يكون لهم أن يروا الحقيقة التي كانوا يكذّبون بها. ويظهر من السياق أنّ المقصود ملائكة العذاب إذ هم يوصفون بأنّهم جند.
- **إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون**: هلاكهم كان سريعًا ومفاجئًا بصيحة واحدة أسكتتهم وأبادتهم {خامدون}.
- **يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون**: تحسّر على حال العباد الذين يقابلون رسل الله بالسخرية والاستهزاء، مما يؤدي لهلاكهم. وهذا من التشخيص في اللغة فالله يخاطب الناس بلغتهم، وإن كان لا يليق به الحسرة (هذا يجب أن نتذكّره جيّدًا

فيما بعد، فسيأتي كثير من الآيات تنسب لله أعراض المشاعر الإنسانيّة ويجب أن تحمل دائمًا على أنّها خطاب للبشر بما يعرفون).

- **ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون**: توبيخ للمكذبين المعاصرين وتذكيرهم بمصائر الأمم السابقة {القرون} التي هلكت ولن تعود للدنيا.
- **وإن كل لمّا جميع لدينا محضرون**: تأكيد على أن الجميع، الأولين والآخرين، سيُجمعون ويُحضرون أمام الله للحساب. {لمّا} هنا بمعنى "إلا" ولكنّها تحمل معنى المستقبل، أي وما كل إلا مجموعون.
- **وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبًا فمنه يأكلون**: الاستدلال بقدرة الله على البعث من خلال آية إحياء الأرض الميتة وإنبات الحب منها.
- **وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون**: تعداد لنعم الله في الأرض: البساتين، النخيل، الأعناب، تفجير الينابيع.
- **ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون**: الغاية من هذه النعم هي أن يأكل الإنسان من فضل الله ومن ثمرة كسبه، والاستفهام للتوبيخ على قلة شكرهم.

{وما عملته أيديهم} قد تعني: ومما لم تعمله أيديهم (أي خلقناه نحن)، أو: ومن ثمرة عمل أيديهم (بسبب الزراعة).

- **سبحان الذي خلق الأزواج كلها...**: تنزيه لله الذي أبدع نظام الزوجية والتنوع في كل المخلوقات والكلام هنا عن تنوّع النبات وكونه يكثر، سواء مما تنبته الأرض، أو من أنفسهم (الذكر والأنثى)، أو مما لا يعلمون من أصناف الخلق.
- **وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون**: آية أخرى في تعاقب الليل والنهار؛ فكأن النهار جلد يُنزع عن الليل {نسلخ} فيحل الظلام.
- **والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم**: آية الشمس وجريانها في فلكها نحو نهاية مقدرة لها أو مكان استقرار. وكل ذلك بتقدير وحكمة الله القوي العليم.
- **والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم**: آية القمر وتحديد أطواره ومنازله بدقة، حتى يعود في نهاية الشهر هلالًا دقيقًا مقوسًا كغصن النخل اليابس القديم {كالعرجون القديم}.

- **لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون**: تأكيد على دقة النظام الكوني؛ فلا يلحق كوكب بآخر ولا يسبق زمن زمنًا، وكل جرم سماوي يتحرك في مداره الخاص {فلك} بحركة انسيابية {يسبحون}، وهذا حالهم فإنّ لهم أجلهم أيضًا من باب أولى.

- **وآية لهم أنا حملنا ذريتهم في الفلك المشحون**: تذكير بنعمة ركوب أسلافهم البحر في السفن الممتلئة {المشحون} (كسفينة نوح أو السفن عامة)، والذريّة تأتي بالمعنيين الأبناء والآباء.

- **وخلقنا لهم من مثله ما يركبون**: وخلقنا لهم وسائل نقل مشابهة يركبونها في أسفارهم، والخلق هنا قد يكون للإبل وسواها، لكنّ الكلام يستمرّ عن السفن، والسفن من صناعة الإنسان، لكنّ الحجّة القرآنية تستخدم لفظة الخلق هنا، فهي إمكانيّة السفن، وإلهام الله البشر أن يصنعوها.

- **وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون**: بيان لقدرة الله على إهلاكهم في البحر، وأنه لا منقذ ولا مغيث {صريخ} أي ليس لهم من يستنجدون به حينئذ.

- **إلا رحمة منا ومتاعًا إلى حين**: نجاتهم في البحر (أو في الحياة عمومًا) هي بفضل رحمة الله وتمتيعه لهم إلى أجل مسمى.
- **وإذا قيل لهم اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم**: إذا نُصحوا بأن يحذروا العذاب القريب: عذاب الآخرة أو الدنيا {ما بين أيديكم} ومصارع السابقين {ما خلفكم}، فإنهم يعرضون.
- **وما تأتيهم من آية... إلا كانوا عنها معرضين**: وصف لحالهم الدائم من الإعراض عن كل آية مهما كانت.
- **وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه**: حجتهم الواهية للامتناع عن الإنفاق؛ ينسبون فقر الفقير لمشيئة الله، ويتنصلون من مسؤوليتهم، ويتهمون المؤمنين بالضلال.
- **ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين**: سؤالهم المتكرّر استهزاءً واستبعادًا عن موعد يوم القيامة.
- **ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصّمون**: ما ينتظرون إلا الصيحة المفاجئة التي تأخذهم وهم في خضم جدالهم وخصوماتهم الدنيوية {يخصّمون} والفعل هنا بمعنى افتعال الخصومة مع الأنبياء.

- **فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون**: شدة المفاجأة بحيث لا يتمكنون من كتابة الوصية أو العودة لأهلهم.

- **ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون**: النفخة الثانية للبعث، وخروجهم السريع {ينسلون} من القبور {الأجداث} متجهين إلى الله، والنسل في الأصل للولادة، لكنّه هنا بمعنى الانسلال.

- **قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا**: صرخة فزعهم وندمهم عند البعث، وتسميتهم للموت رقادًا وكأنّه النوم، أو أنّه مكان ظنّوه مستقرّهم الأخير.

- **هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون**: الجواب الذي يأتيهم من أنفسهم (أو قيل من الملائكة أو المؤمنين): هذا هو ما وعد به الرحمن وصدق فيه المرسلون. وهو اعتراف متأخر بالحق.

- **إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون**: تأكيد على سرعة البعث والحشر؛ بصيحة واحدة يكون الجميع حاضرين أمام الله، الصيحة تذهب بهم، والصيحة تأتي بهم.

- **فاليوم لا تظلم نفس شيئًا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون**: إعلان العدل التام يوم القيامة؛ لا ظلم لأحد، والجزاء مطابق تمامًا للعمل.
- **إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون**: وصف حال أهل الجنة؛ مشغولون عنكم، وليسوا في شغل متعب، بل هم فرحون متلذذون {فاكهون}.
- **هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون**: راحتهم وسعادتهم مع أزواجهم في ظلال وارفة على أسرة مزينة {الأرائك} في تمام الاسترخاء {متكئون}.
- **لهم فيها فاكهة ولهم ما يدّعون**: لهم كل أنواع الفاكهة، وكل ما يطلبون ويتمنّون {يدّعون}.
- **سلام قولًا من رب رحيم**: هذا السلام هو ما قدّره الله لهم، أي حالهم سلام، وهذا الحال هو قول راعيهم الرحيم بهم (ما قضاه الله لهم).
- **وامتازوا اليوم أيها المجرمون**: امتاز أي تقطّع غيظًا، فهو ينذرهم بالندامة التي سيشعرون بها.
- **ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان**: توبيخ وتقريع لبني آدم يوم القيامة، وتذكيرهم بالعهد

والميثاق الأول بعدم اتباع الشـــيطان، والشـــيطان هنا تجسيد لحال الكبر والشطن عن الحقّ (الابتعاد عنه).

- **وأن اعبدوني هذا صـراط مسـتقيم**: التذكير بأن عبادة الله وحده هي الطريق المستقيم الذي أمروا به.
- **ولقد أضـــل منكم جِبلًّا كثيرًا أفلم تكونوا تعقلون**: بيان لكثرة من أضـــلهم الشـــيطان من الخلق {جبلًّا كثيرًا}، وتوبيخ لهم على عدم استخدام عقولهم لتجنب ذلك.
- **هذه جهنم التي كنتم توعدون**: الإشارة المباشرة لجهنم التي كانوا يكذبون بها.
- **اصـــلوها اليوم بمـا كنتم تكفرون**: الأمر بـدخولهـا ومقاساة حرها {اصلوها} جزاءً لكفرهم.
- **اليوم نختم على أفواههم وتكلمنـا أيـديهم وتشـــهـد أرجلهم**: يسكتهم الله، ولكن ينطق الأعضاء لتشهد على صاحبها يوم القيامة.
- **ولو نشـاء لطمسـنا على أعينهم فاسـتبقوا الصـراط فأنى يبصـــرون**: لو أردنا لعاقبناهم في الدنيا بمحو أبصـــارهم {طمســنا}، فحاولوا الإســراع إلى الطريق الواســع {الصــراط} الذي لن تســاعدهم ســعته حينها، فكيف كانوا سيبصرونه؟ بيان لقدرة الله عليهم.

- **ولو نشـــاء لمســـخناهم على مكانتهم فما اســـتطاعوا مضـــيًا ولا يرجعون**: لو أردنـا لعـاقبنـاهم في الـدنيـا بتحويل خلقهم وتجميدهم في أماكنهم {مســـخناهم على مكانتهم}، فلن يســـتطيعوا تقدمًا ولا رجوعًا. بيان آخر للقدرة الإلهية.

- **ومن نعمّره ننكّســـه في الخلق أفلا يعقلون**: من نطل عمره {نعمّره} نُرجعه إلى حالة الضـــعف والنقص في الخلق {ننكّســه} (كالطفولة والشـيخوخة)، ألا يتفكرون في هذا كدليل على القدرة وعلى أن القوة ليست دائمة؟

- **وما علمناه الشـــعر وما ينبغي لـه**: نفي قاطع لكون النبي شـاعرًا وأن القرآن شـعر، وبيان أن طبيعة النبوة والوحي لا تتناســب مع طبيعة الشــعر وخيالاته، فهو ليس بشاعر ولا يليق به الشعر.

- **إن هو إلا ذكر وقرآن مبين**: تحديد هويـة مـا جـاء بـه النبي: هو تـذكير {ذكر} وكلام مقروء واضـــح بيّن {قرآن مبين} فهو ذلك وليس فوق ذلك ولا تحته.

- **لينذر من كان حيًا ويحق القول على الكافرين**: الغاية من هذا الذكر: إنذار من كان قلبه حيًا مستجيبًا، وإقامة الحجــة وتحقيق كلمــة العـذاب {يحق القول} على الكافرين المعاندين.

- **أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعامًا فهم لها مالكون**: لفت أنظارهم إلى نعمة خلق الأنعام لهم بقدرة الله المباشرة {عملت أيدينا}، وجعلهم مالكين متصرّفين فيها، رغم أنّ كثيرا من الخلائق عصيّة على الاستئناس كالغزلان وغيرها.

- **وذللناها لهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون**: بيان لتسخير الأنعام لهم لركوبها وأكلها والانتفاع بها في أمور شتى كالصوف، وأنّهم يشربون ألبانها، ثم التوبيخ على عدم شكرهم لهذه النعم.

- **واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون**: بيان لحمق الشرك؛ يتخذون آلهة أخرى يرجون منها النصر والعون. وكانت العرب تغزو بعضها فلا تطلب النصرة من الله فهو ربّهم وربّ أعدائهم، ولكن ينادون صنمهم رمز قبيلتهم.

- **لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون**: الحقيقة هي أن هذه الآلهة عاجزة عن نصرهم، مع أنّ الكافرين جند لهذه الحجارة.

- **فلا يحزنك قولهم إنا نعلم ما يسرون وما يعلنون:** تعزية أخيرة للنبي بألا يتأثر بأقوالهم المكذبة، فالله محيط علمًا بكل سرهم وعلانيتهم وسيجازيهم.
- **أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين:** تعجب من حال الإنسان الجاحد؛ ينسى أصله المتواضع من نطفة، ثم يصبح شديد الخصومة والجدال بالباطل مع خالقه {خصيم مبين}.
- **وضرب لنا مثلًا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم:** مثال على جدالهم في إنكار البعث؛ يضرب المثل بالعظام البالية {رميم} وينسى كيف خُلق هو أول مرة.
- **قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم:** الرد الحاسم: القادر على الإنشاء الأول قادر على الإعادة، وهو عليم بكل تفاصيل الخلق.
- **الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نارًا فإذا أنتم منه توقدون:** دليل آخر على القدرة من الطبيعة: إخراج الشيء من ضده (النار اليابسة من الشجر الأخضر الرطب)، فكذلك يخرج الله الحياة من الموت، والموت من الحياة.

- **أو ليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم**: الاستدلال بالخلق الأعظم (السماوات والأرض) على القدرة على الخلق الأقل (إعادة البشر). {بلى} للإثبات بعد السؤال المنفيّ. {الخلاق} صيغة مبالغة لكثرة خلقه. {العليم} بجميع كيفيات الخلق.
- **إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون**: بيان لسهولة الخلق والإيجاد على الله؛ بمجرد الإرادة والقول {كن} يكون الشيء.
- **فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون**: تنزيه وتعظيم لله الذي بيده الملك التام {ملكوت} لكل شيء، وإليه المرجع والمآل النهائي لجميع الخلق.

مقالة السورة (يس)

يقسم الله تعالى في مطلع سورة "يس" بالقرآن المتقن ذي الحكمة البالغة {والقرآن الحكيم}، ليثبت لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم رسالته وأنه يسير على نهج الحق والهدى {إنك لمن المرسلين على صراط مستقيم}. ويؤكد أن هذا القرآن إنما هو {تنزيل العزيز الرحيم}، أُرسل به النبي لغاية محددة وهي إنذار قوم غلبت عليهم الغفلة لعدم مجيء نذير لآبائهم

في الأزمان القريبة {لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون}. لكن السورة تقرر أن الحكم قد ثبت والقضاء قد حقّ على أكثر هؤلاء المعاندين بسبب إصرارهم على الكفر {لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون}. وتصور السورة حالة الإغلاق الروحي التي وصلوا إليها بأبلغ استعارة؛ فكأن على أعناقهم أغلالًا ترفع رؤوسهم فلا يستطيعون خفضها للحق {أغلالًا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون}، وكأنهم محاطون بسدود من أمامهم ومن خلفهم تمنعهم من رؤية المستقبل والماضي وقد غُشيت أبصارهم عن رؤية الهدى {وجعلنا من بين أيديهم سدًا... فأغشيناهم فهم لا يبصرون}. ولشدة هذا الإغلاق، فقد استوى لديهم الإنذار وعدمه، فلا سبيل لإيمانهم {وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون}. فالإنذار القرآني إنما يجد وقعه ويؤتي ثماره في قلوب من لديهم الاستعداد الفطري لاتباع الذكر والخوف من الله بالغيب {إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب}، وهؤلاء لهم البشرى بالمغفرة والأجر الكريم.

وتنتقل السورة لتأكيد حقيقة البعث التي ينكرها هؤلاء الغافلون، فتعلن بقدرة الله المطلقة: {إنا نحن نحيي الموتى}، وتقرر مبدأ الإحصاء الدقيق لكل عمل ولكل أثر يتركه الإنسان بعده {ونكتب ما قدموا وآثارهم}، وأن كل شيء من أفعالهم وآثارهم محفوظ ومضبوط في سجل واضح {وكل

شـــيء أحصـــيناه في إمام مبين}، وهذا ليس ســـابقًا على اختيارهم الكفر. ولكي تترســـخ العبرة، يأمر الله نبيه بأن يضرب لهم مثلًا قصة {أصحاب القرية}. لقد أرسل الله إليهم رســـولين فكذبوهما، فعزز الموقف برســـول ثالث، لكنهم أصـــروا على التكذيب، مقدمين حجتهم الواهية المكررة عبر التاريخ: {ما أنتم إلا بشـــر مثلنا وما أنزل الرحمن من شـــيء إن أنتم إلا تكذبون}. اكتفى الرســـل بالاحتكام إلى علم الله وإعلانهم أن مهمتهم هي البلاغ الواضح {وما علينا إلا البلاغ المبين}. لكن أهل القرية لم يكتفوا بالتكذيب، بل لجأوا إلى التشـــاؤم والخرافة {إنا تطيرنا بكم}، ثم إلى التهديد الصـــريح بالعنف والقتل {لنرجمنكم وليمســـنكم منا عذاب أليم}. فرد الرسل بأن الخيار لهم، وأنّ شؤمهم ملازم لهم بسبب كفرهم وتجاوزهم الحد في الإعراض {طائركم معكم أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون}. وفي خضم هذا التكذيب، يظهر بصيص أمل من أطراف المدينة، حيث جاء رجل مؤمن مســـرعًا {يســـعى}، ليقدم لقومه حجة تدعوهم لاتباع الرســـل الذين لا يطلبون أجرًا وهم مهتدون، وليعلن موقفه الإيماني الشخصي القائم على عبادة الخالق الذي فطرهم وإليه المرجع، مفندًا عجز الآلهة المزعومة عن النفع أو الضر. ثم يصدع بإيمانه أمامهم متحديًا: {إني آمنت بربكم فاســـمعون}. فكان جزاؤه القتل (كما يُفهم ضـــمنًا)، وجزاؤه عند الله التكريم الفوري

بدخول الجنة، حيث تمنى لو أن قومه يعلمون بمغفرة الله له وإكرامه لعلهم يهتدون. أما قومه المكذبون، فلم يحتج الله لإنزال جنود لإهلاكهم، بل كانت {صيحة واحدة فإذا هم خامدون}، في تأكيد على سرعة زوال الباطل أمام قوة الحق. وتعقب السورة بتحسر على حال العباد الذين يقابلون رسل الله بالاستهزاء، وتذكّر بمصائر القرون الهالكة التي لا عودة لها إلى الدنيا، مؤكدة أن الجميع سيُحضرون للحساب {وإن كل لما جميع لدينا محضرون}.

ثم تنتقل السورة لعرض آيات الله الكونية كبراهين متجددة على قدرته ووحدانيته وحكمته، خاصة فيما يتعلق بقدرته على البعث والنشور. تبدأ بآية الأرض الميتة التي يحييها الله بالماء فيخرج منها الحب الذي يأكلون، وما فيها من جنات نخيل وأعناب وعيون متفجرة، وكل ذلك ليأكلوا من فضله ومن ثمرة عملهم، فلماذا لا يشكرون؟ ثم تلفت النظر إلى نظام الزوجية الشامل في الخلق كله، وإلى آيتي الليل والنهار وتعاقبهما الدقيق {نسلخ منه النهار}، وجريان الشمس والقمر في أفلاك محددة {لمستقر لها}، {قدرناه منازل} حتى يعود القمر كالعرجون القديم، في نظام كوني بديع لا يختل {لا الشمس ينبغي لها... وكل في فلك يسبحون}. وتذكر بآية أخرى وهي نعمة حملهم ونجاة أسلافهم في السفن {الفلك المشحون}، وخلق وسائل ركوب أخرى لهم، مع التنبيه إلى

أن نجاتهم في البحر ليست إلا برحمة الله وهي متاع إلى حين، فالله قادر على إغراقهم متى شاء {وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم}.

وتعود السورة لتصف إعراض المكذبين المعاصرين؛ فهم لا يستجيبون للنصيحة بتقوى الله والخوف من عذابه وعبر الماضي {اتقوا ما بين أيديكم وما خلفكم}، ويعرضون عن كل آية تأتيهم. بل إنهم يردون على دعوة الإنفاق بحجة فاسدة تدل على قسوة القلب وسوء الفهم لمشيئة الله ومسؤولية الإنسان {أنطعم من لو يشاء الله أطعمه}. ويستمرون في استهزائهم بيوم القيامة متسائلين {متى هذا الوعد}. فيأتيهم الجواب بأن الساعة تأتي بغتة بصيحة واحدة تأخذهم وهم في خضم خصوماتهم الدنيوية {وهم يخصّمون}، فلا يملكون حتى فرصة لكتابة وصيّة موتهم أو العودة لأهلهم. ثم تأتي النفخة الثانية {ونفخ في الصور}، فيخرجون من القبور مسرعين {ينسلون} إلى ربهم، فزعين نادمين {يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا}، ليأتيهم الجواب بأن هذا هو وعد الرحمن الذي صدق فيه المرسلون. وتؤكد الآيات سرعة الحشر {صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون}، وكمال العدل في الجزاء {فاليوم لا تظلم نفس شيئًا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون}.

وتفصل السورة في المقارنة بين مصير الفريقين: فأصحاب الجنة في نعيم دائم، مشغولون عن الكفّار بالتلذذ والفرح {في شغل فاكهون}، مع أزواجهم في ظلال على أرائك متكئين، لهم فيها كل ما يشتهون ويطلبون {ولهم ما يدعون}، يعيشون في سلام قضاه الله لهم {سلام قولًا من رب رحيم}. وفي المقابل، يُؤمر المجرمون بالانفصال والتمييز استعدادًا للعذاب {وامتازوا اليوم أيها المجرمون}. ويُذكّرون بالعهد الأول بعدم عبادة الشيطان العدو المبين، وبأن عبادة الله وحده هي الصراط المستقيم، ويُوبخون على اتباعهم للشيطان الذي أضل منهم خلقًا كثيرًا {جِبِلًّا كثيرًا} دون تعقل. ثم يواجهون بجهنم التي كانوا بها يوعدون ويؤمرون بدخولها {اصلوها}، وتُختم أفواههم وتشهد عليهم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يكسبون. وتؤكد السورة قدرة الله على عقابهم في الدنيا لو شاء (بطمس الأعين أو المسخ) كدليل على قدرته الأكبر في الآخرة، وتذكرهم بضعفهم الإنساني وحتمية الانتكاس في الخلق مع تقدم العمر {ومن نعمّره ننكّسه في الخلق أفلا يعقلون}.

وتعود السورة لتدافع عن طبيعة الوحي، فتنفي قطعًا أن يكون النبي شاعرًا أو أن القرآن شعر {وما علمناه الشعر وما ينبغي له}، مؤكدة أنه {إن هو إلا ذكر وقرآن مبين}، غايته إنذار من كان قلبه حيًا وإقامة الحجة على الكافرين. وتدعوهم مرة

أخرى للتفكر في نعم الله عليهم كخلق الأنعام وتذليلها لهم لمنافعهم المتعددة {فمنها ركوبهم ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب}، فلماذا لا يشكرون؟ وتفضح حماقة الشرك؛ فهم يتخذون آلهة عاجزة يرجون نصرها، وهي لا تستطيع نصرهم بل هم الذين يقومون على خدمتها كالجند لها {وهم لهم جند محضرون}. وتأتي تسلية أخيرة للنبي {فلا يحزنك قولهم}، مع التأكيد على علم الله الشامل بما يسرون وما يعلنون. وتواجه الإنسان الجاحد الذي ينسى أصله المتواضع من نطفة ثم يصبح شديد الخصومة لربه {خصيم مبين}، ويضرب الأمثال لإنكار البعث متناسيًا خلقه الأول {قال من يحيي العظام وهي رميم}. فيأتيه الرد الحاسم {قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم}، مدعومًا بأدلة القدرة من إخراج النار من الشجر الأخضر، ومن خلق السماوات والأرض الأعظم، ومؤكدًا أن أمر الله نافذ بكلمة {كن فيكون}. وتختتم السورة بتنزيه الله وتعظيمه {فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء}، وتذكير بالحقيقة النهائية التي لا مفر منها {وإليه ترجعون}.

المعنى الشمولي (يس)

تؤكد سورة "يس" في مستهلها ومضمونها مكانة القرآن الحكيم وصدق رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، في مواجهة حالة الإغلاق الروحي الذي يأتي نتيجة الاستكبار، والإصرار على التكذيب لدى أكثر المعاندين في مكة، مبيّنة أن الإنذار إنما ينفع من كان مستعدًا لاتباع الذكر وخشي الرحمن بالغيب. وتقدم السورة قصة أصحاب القرية كمثل محوري يكشف عن سنة الله في إرسال الرسل وتكذيبهم من قبل أقوامهم بسبب استكبارهم واتباعهم للهوى وتذرعهم بالخرافة {تطيرنا بكم}، مبرزةً مصير المؤمن الصادع بالحق الذي لقى ربه شهيدًا وتمنى الخير لقومه، مقابل الهلاك السريع للمكذبين {صيحة واحدة فإذا هم خامدون}، وتأتي القصّة لتقول إنّ طلباتهم من الإثبات لن تنتهي حتّى لو أوحينا لرجل آخر يشهد لك يا محمّد.

وتعرض السورة دلائل القدرة الإلهية وآياتها في الكون والأنفس كبراهين على حقيقة البعث الذي ينكره الغافلون؛ فمن إحياء الأرض الميتة، إلى نظام الزوجية في الخلق، إلى دقة حركة الشمس والقمر والليل والنهار، كلها تشهد على الخالق العليم القدير الذي كتب أعمال العباد وآثارهم {وكل شيء أحصيناه في إمام مبين}. وتواجه السورة منطق المكذبين الواهي في رفضهم للإنفاق أو استهزائهم بيوم

الوعد، ثم تصـــف أهوال قيام الســـاعة بصـــيحتها المفاجئة، وحشـــر الخلائق، وفزع المكذبين واعترافهم المتأخر بالحق، وكمـال العـدل الإلهي في الجزاء. وتؤكّـد الســـورة على أنّ الساعة تأتي في موعدها، وليس للكفّار أن يطلبوا نصيبهم من العذاب قبل أن يقرّره الله لوقت يعلمه هو.

وفي الختـام، تقـارن الســـورة بين نعيم أهـل الجنـة الأبـدي وسـلامهم الخالص {سـلام قولًا من رب رحيم}، وبين عذاب المجرمين وتوبيخهم على نقض العهد القديم بعبادة الشـيطان، وشـهادة جوارحهم عليهم. وتدحض السـورة الشـبهات حول القرآن والنبي، وتلفـت النظر مجـددًا إلى نعم الله في الخلق (كالأنعام) وحماقة الشرك، وتقدم التعزية للنبي، لتنتهي بتأكيد قدرة الله المطلقة على الخلق والإعادة {يحييها الذي أنشـــأها أول مرة} وســـرعة نفاذ أمره {كن فيكون}، وتنزيهه عن كل نقص، فهو الذي {بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون}.

مقالات القرآن العظيم 38 | سورة الفرقان

تأتي سورة "الفرقان" (قرابة الثانية والأربعين في ترتيب النزول التقريبي) في سياق متقدم من الدعوة المكية، حيث تشتد المواجهة وتتخذ شبهات المشركين واعتراضاتهم طابعًا أكثر تفصيلًا وعنادًا. اسم السورة {الفرقان} جاء من اسم القرآن في السورة "الفرقان"، الكتاب الفارق بين الحق والباطل، وهو المحور الذي تدور حوله السورة دفاعًا وتبيانًا. تواجه السورة بشكل مباشر ومنظم اعتراضات كفار مكة المتعددة على القرآن (زعمهم أنه إفك مفترى، وأساطير الأولين، واعتراضهم على نزوله مفرقًا) وعلى شخص الرسول (بشريته، أكله للطعام، مشيه في الأسواق، عدم نزول ملك معه، عدم امتلاكه للكنوز والجنات).

وفي السورة ترد زبدة الرسالة، ويظهر توافق أساس الرسالة مع كتاب موسى والوصايا التي فيه، ولكنّ هذا يأتي في سياق حشد الآيات والحجج البلاغية على الكفّار. كما أنّها تنفّر المشركين من اتّباع الكفّار وتؤسّس لفكرة المسؤوليّة الفرديّة عن الأفعال، وفيها تعزيات للرسول بأنّ ما يلاقيه هو ما لاقاه الرسل من قبل. ويظهر فيها أنّ الرسول صارت له عصبة من المؤمنين في مكّة، يمتدحهم الله في كتابه.

إضاءات لغوية (الفرقان)

- **تبارك**: صـيغة تفاعل من البركة (ب ر ك)، تدل على تعالى الله وتمجيده وكثرة خيره وعلو شـأنه وثباته. تأتي في مقام التعظيم الإلهي.
- **الفرقان**: اسـم للقرآن الكريم، من الجذر (ف ر ق)، لأنه يفرق بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والحلال والحرام.
- **ليكون للعالمين نذيرًا**: بيان الغاية من إنزال الفرقان على عبده (محمد صلى الله عليه وسلم)؛ ليكون إنذارًا وتحذيرًا للناس {للعالمين}.
- **فقدره تقديرًا**: {قدّره} أي جعل له مقدارًا وحدًّا ونظامًا دقيقًا يناسبه. {تقديرًا} مصدر مؤكد للفعل، يدل على كمال التقدير وإحكامه.
- **ولا يملكون لأنفسهم ضرًا ولا نفعًا ولا يملكون موتًا ولا حياةً ولا نشورًا**: بيان لعجز الآلهة المزعومة المطلق؛ فهم لا يملكون لأنفسهم شيئًا، فكيف يملكونه لغيرهم؟ النفي يشمل الضر والنفع والحياة والموت والبعث {نشورًا}.

- **إن هذا إلا إفك افتراه**: {إن} نافية بمعنى "ما". {إفك} هو أشد الكذب والبهتان والزور. {افتراه} أي اختلقه وابتداعه من عند نفسه. هذه تهمة المشركين للقرآن: ليس إلّا مجرّد كذب اختلقه.
- **وأعانه عليه قوم آخرون**: اتهام آخر بأن النبي لم يؤلف القرآن وحده بل استعان بآخرين (قيل من أهل الكتاب أو غيرهم)، وهذا ما يظهر فيه اضطراب قولهم فهم يبدّلون الرأي في الجملة الواحدة.
- **فقد جاءوا ظلمًا وزورًا**: رد إلهي على اتهاماتهم؛ فبقولهم هذا قد ارتكبوا ظلمًا عظيمًا وكذبًا وبهتانًا {زورًا}.
- **أساطير الأولين اكتتبها**: قالوا إن القرآن مجرد قصص الأولين {أساطير} وهي ما يدوّن في السطور، استنسخها محمد وطلب كتابتها {اكتتبها}.
- **فهي تملى عليه بكرة وأصيلًا**: زعموا أنها تُقرأ عليه وتُلقّن له صباحًا ومساءً ليحفظها. {تملى} من الإملاء.
- **قل أنزله الذي يعلم السرّ**: الرد الحاسم بأن منزّل القرآن هو الله الذي يعلم كل خفي ومستتر {السر} في السماوات والأرض، فعلمه المحيط هو مصدر هذا الكتاب.

- **مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق**: اعتراضهم على بشرية الرسول؛ كيف يكون رسولًا وهو يمارس الحياة كباقي البشر؟
- **لولا أنزل إليه ملَك فيكون معه نذيرًا**: اقتراحهم المتعنّت بأن يُرسل معه ملك ليساعده في الإنذار، وحينها لن تكون دعوة بل إثباتًا.
- **أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة**: مطالب مادية تعكس نظرتهم الدنيوية؛ إما كنز يهبط عليه، أو بستان خاص يأكل منه فلا يحتاج للأسواق.
- **رجلًا مسحورًا**: اتهام آخر للنبي بأنه واقع تحت تأثير السحر فاقد للعقل.
- **ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلًا**: تعجيب من تشبيهاتهم واعتراضاتهم الباطلة {الأمثال} التي أدت إلى ضلالهم وعجزهم عن إيجاد طريق للحق أو حجة موحّدة.
- **تبارك الذي إن شاء جعل لك خيرًا من ذلك جنات... وقصورًا**: إعادة لـ{تبارك} للتأكيد على قدرة الله وعظمته، وأنه لو شاء لأعطى نبيه في الدنيا أفضل مما يقترحونه من جنات وقصور، لكن الحكمة تقتضي غير ذلك.

- **بل كذبوا بالساعة**: إضراب باستخدام {بل} يكشف عن الدافع الحقيقي لتكذيبهم واعتراضـــاتهم: إنه إنكار يوم القيامة {الساعة}.
- **أعتدنا... ســـعيرًا**: هيأنا وأعددنا نارًا شـــديدة الحرّ {سعيرًا}.
- **تغيظًا وزفيرًا**: {تغيظًا} صـــوت غليانها وغضـــبها الشديد. {زفيرًا} صوت تتابع أنفاسها كأنها تتنفس من شدة الوقود والغضب. تشخيص للنار لزيادة الرهبة.
- **مكانًا ضـيقًا مقرنين**: مكان شـديد الضـيق في جهنم، يُلقون فيه وهم مقيدون بالسلاسل يقرن بعضهم ببعض {مقرنين}، وهو في الأصـــل احتكاك قرون الثيران إذا جمعت معًا في نيرٍ واحد.
- **دعوا هنالك ثبورًا**: نادوا واســـتغاثوا طالبين الهلاك والخسران {ثبورًا} لشدة ما يلاقون.
- **لا تدعوا اليوم ثبورًا واحدًا وادعوا ثبورًا كثيرًا**: رد عليهم فيـه تيئيس وتقريع: لا تطلبوا هلاكًـا واحـدًا فالعذاب متنوع ومســـتمر، فادعوا هلاكًا كثيرًا، فلا راحة من العذاب بالموت.
- **جنة الخلد**: الجنة التي نعيمها دائم لا ينقطع.

- **كان على ربك وعدًا مسؤولًا**: كان هذا الوعد بالجنة للمتقين وعدًا ثابتًا واجب الإنجاز، يُسأل الله عنه وفاءً أو يسأله المؤمنون تحقيقه {مسؤولًا}.
- **ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله**: مشهد من مشاهد القيامة: حشر المشركين ومعبوداتهم (من ملائكة أو أنبياء أو أصنام أو غيرها).
- **أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل**: سؤال الله للمعبودين (لإقامة الحجة على العابدين وتوبيخهم): هل أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم فأضللتموهم، أم هم ضلوا من تلقاء أنفسهم؟
- **سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء**: جواب المعبودين (الصالحين كالملائكة والأنبياء): تنزيه لك يا الله! ما كان يليق بنا أصلًا أن نتخذ نحن أولياء من غيرك، فكيف نأمر غيرنا بذلك؟ (وفيه تبرؤ منهم).
- **ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر**: تفسير لسبب ضلال العابدين: تمتعهم بنعم الدنيا طال بهم الأمد حتى نسوا رسالة التوحيد {الذكر}.

- **وكانوا قومًا بورًا**: كانوا قومًا هالكين فاسدين لا خير فيهم {بورًا}، والأرض البور هي التي لا تنتج حتّى لو زرعت وسقيت.
- **فقد كذبوكم بما تقولون**: خطاب للمشركين: ها هم معبودوكم قد كذبوكم في زعمكم أنهم أمروكم بعبادتهم أو أنهم آلهة.
- **فما تستطيعون صرفًا ولا نصرًا**: لستم قادرين على دفع العذاب {صرفًا} عن أنفسكم، ولا تجدون من ينصركم.
- **إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق**: رد على شبهتهم حول بشرية الرسل؛ فهذه هي سنة الله في جميع المرسلين قبل محمد صلى الله عليه وسلم.
- **وجعلنا بعضكم لبعض فتنة**: جعلنا أحوالكم متفاوتة (غني وفقير، صحيح وسقيم، رسول وقوم...) ليكون ذلك اختبارًا وامتحانًا {فتنة} للجميع.
- **أتصبرون**: استفهام عن مدى صبرهم على هذا الابتلاء، وهو جوهر الاختبار.
- **وكان ربك بصيرًا**: الله مطلع ويرى صبر الصابرين وجزع الجازعين.

- **لا يرجون لقاءنا**: لا يأملون ولا يتوقعون ولا يخافون لقاء الله يوم الحساب، بل إنّهم يروجون عدم وجود يوم حساب.
- **لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا**: تكرار لطلبهم المتعنت لرؤية الملائكة أو رؤية الله جهرة كشرط للإيمان، هذا وهم لا يرجون لقاء الله، فهي طلبات قصد منها التكذيب لا أكثر.
- **لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوًا كبيرًا**: بيان لسبب طلباتهم: الكبر المتأصل في نفوسهم، والتمرد والطغيان العظيم {عتوا عتوًا كبيرًا}.
- **يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين**: سيأتي يوم يرون فيه الملائكة (عند الموت أو يوم القيامة)، ولكن لن تكون رؤيتهم بشارة لهم، بل نذير عذاب.
- **ويقولون حجرًا محجورًا**: قول الملائكة لهم: حرام محرم عليكم دخول الجنة أو نيل الرحمة.
- **وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورًا**: يتوعّد الله الكافرين بإهلاك أعمالهم، وهذا يجوز أن يكون بيان فشل خططهم لمحاربة النبيّ، أو عدم قبول أي عمل صالح لهم.

- **خير مستقرًا وأحسن مقيلًا**: أهل الجنة أفضل مكان استقرار {مستقرًا} وأجمل مكان للراحة وقت الظهيرة {مقيلًا} من أهل النار.
- **ويوم تشقق السماء بالغمام**: يوم القيامة تتشقق السماء وتتقشّر بسحبها، وكأنّها صورة تزول لتظهر الحقيقة.
- **ونُزّل الملائكة تنزيلًا**: صيغة الماضي للتوكيد على هذا الحدث في المستقبل.
- **الملك يومئذ الحق للرحمن**: الملك الحقيقي الثابت يوم القيامة هو لله {الرحمن} وحده. استخدام اسم {الرحمن} هنا مجددًا فيه توبيخ لمن كانوا ينكرونه.
- **وكان يومًا على الكافرين عسيرًا**: يوم القيامة شديد وصعب {عسيرًا} على الكافرين.
- **ويوم يعض الظالم على يديه**: كناية عن شدة الندم والحسرة التي تصيب الظالم (المشرك) يوم القيامة.
- **يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلًا**: أمنيته بأن لو كان قد اتبع طريق الرسول ومنهجه.
- **يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانًا خليلًا**: يا للهلاك! يتمنى لو لم يتخذ قرين السوء صديقًا حميمًا {خليلًا}.

- **لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني**: اعترافه بأن قرين السوء هو من أضله عن القرآن {الذكر} بعد أن بلغه.
- **وكان الشيطان للإنسان خذولًا**: تقرير لحقيقة ثابتة: الشيطان (كل من يشطن عن الحق وإن كان من البشر) دائمًا ما يخذل الإنسان ويتبرأ منه عند الشدة.
- **وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورًا**: شكوى الرسول لربه من إعراض قومه (أكثر من أرسل لهم حتّى ذلك الوقت) عن القرآن وهجرهم له عملًا وتدبرًا.
- **وكذلك جعلنا لكل نبي عدوًا من المجرمين**: بيان لسنة الله في وجود أعداء للأنبياء من مجرمي أقوامهم، وذلك تسلية للنبي محمد.
- **وكفى بربك هاديًا ونصيرًا**: الله يكفي ليكون هاديًا لك وناصرًا لك على أعدائك.
- **لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة**: شبهة أخرى للمشركين: لماذا لم ينزل القرآن دفعة واحدة كما نزلت الكتب السابقة (في زعمهم)؟
- **كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلًا**: الجواب الإلهي: أنزلناه مفرقًا {كذلك} لتثبيت قلب النبي {لنثبت به

فؤادك}، ونزلناه في دفعات "أرتال" {ورتلناه ترتيلًا} ليكون القسم تلو القسم.

- **ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرًا**: كلما جاءوك بشبهة أو حجة باطلة {بمثل}، أتيناك بالجواب الحق القاطع {بالحق} وبأفضل بيان وتوضيح {وأحسن تفسيرًا}، والتفسير هو جلوّ الغموض، ولهذا لم نقبل تسمية "تفسير" في حقّ الكلام الواضح.
- **الذين يحشرون على وجوههم**: كناية عن غاية الذل والإهانة في سوقهم إلى جهنم، وكأنّهم يسيرون ووجوههم إلى الأسفل من الذلّ.
- **شر مكانًا وأضل سبيلًا**: هم في أسوأ مكانة وأضل طريق.
- **الكتاب**: الكتاب المنزل إلى موسى.
- **وزيرًا**: معينًا ومساعدًا في حمل أعباء الرسالة.
- **فدمرناهم تدميرًا**: أهلكناهم هلاكًا شاملًا تامًا.
- **لما كذبوا الرسل**: تكذيبهم لنوح كتكذيب لجميع الرسل لأن الرسالة واحدة في أصلها.
- **وجعلناهم للناس آية**: جعلنا قصتهم عبرة لمن بعدهم.

- **أصحاب الرس**: قوم ورد ذكرهم ولم تفصل قصتهم، أهلكوا لتكذيبهم.
- **قرونًا بين ذلك كثيرًا**: أجيالًا وأممًا كثيرة بين الأقوام المذكورة تم إهلاكها أيضًا.
- **وكلًا ضربنا له الأمثال وكلًا تبرنا تتبيرا**: كل أمة من هؤلاء أقمنا عليها الحجة بضرب الأمثال، وكل أمة أهلكناها هلاكًا تامًا {تبرنا تتبيرا}.
- **القرية التي أمطرت مطر السوء**: أطلال قوم سابقين مشهورة بأنّ أهلها أهلكوا بمطر فيه هلاك لهم.
- **أفلم يكونوا يرونها بل كانوا لا يرجون نشورًا**: إقرار بأنّ أهل مكّة يعرفون هذه القرية ويعرفون أنّها هلكت بالمطر، فلماذا لا يعتبرون؟ السبب الحقيقي هو عدم إيمانهم بالبعث {لا يرجون نشورًا}.
- **إن يتخذونك إلا هزوًا**: لا يتخذونك إلا سخرية ولعبًا.
- **أهذا الذي بعث الله رسولًا**: قولهم استخفافًا وتحقيرًا لشأن النبي.
- **إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها**: كاد أن يصرفنا عن عبادة آلهتنا لولا ثباتنا عليها! (فخر معكوس بالثبات على الباطل).

- **وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلًا**: سيعرفون الحقيقة المرة عند رؤية العذاب، من كان صاحب أضيع الطرق وأكثرها ضلالًا.
- **أرأيت من اتخذ إلهه هواه**: تعجيب من حال من جعل هواه وشهواته هي المعبود المطاع من دون الله.
- **أفأنت تكون عليه وكيلًا**: هل أنت يا محمد مسؤول عن هدايته أو محاسبته؟ لا، فمهمتك البلاغ.
- **إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلًا**: تشبيه من يعطل عقله وسمعه وبصره عن فهم الحق بالبهائم التي لا تعقل، بل هم أضل لأن البهائم تتبع فطرتها، أما هم فعاندوا الفطرة والوحي.
- **ألم تر إلى ربك كيف مد الظل...**: دعوة للنظر في آية الظل وكيف يمتد وينقبض بقدرة الله، وهو تشبيه لحالهم بأنّ الله خلق الظلّ ومدّه كما ترك لهم أن يضلّوا ومدّهم في طغيانهم، ثمّ يزيل ضلالهم بدليل كالشمس أو يقبضهم إليه هم وضلالهم.
- **ثم قبضناه إلينا قبضًا يسيرًا**: إنّ ظهور النور وقبض الظلّ ومنعه من التطاول أمر يسير على الله. ثم تتوالى الآيات التي تحيل إلى أنّ أحوال الخلق بيد الله وهو الذي قضى بأن تلبس الأرض الليل ويستحكم الظلام ثم

يـأتي النهـار ونشـــور النـاس، وهـذا كـأنّـه بعثهم يوم القيامة.

- **الليل لباسًا**: يستر بظلامه كاللباس.
- **النوم سباتًا**: راحة وانقطاعًا عن الحركة والإحساس.
- **النهار نشـــورًا**: وقتًا للانتشـــار والحركة والبعث من النوم للحياة والمعاش. وكلها أمثلة كما أسلفنا تحيل إلى الموت والنشور.
- **الرياح بشرًا بين يدي رحمته**: الرياح مبشرات بالمطر الذي هو رحمة.
- **ماء طهورًا**: ماءً طاهرًا في ذاته مطهرًا لغيره.
- **لتحيي به بلدة ميتًا ونسـقيه... أنعامًا وأناسـي كثيرًا**: فوائد المطر: إحياء الأرض، وســـقاية الأنعام والناس {أناسيّ}.
- **ولقد صـــرفناه بينهم ليذكروا**: لقد وزّعنا الماء بينهم {صرفناه} ليتذكروا نعمة الله وقدرته، ويجوز أن تكون لأمثلة القرآن الذي ينوّع الله فيه من الآيات ليتذكّروا، وفي هذا معنى تشبيه الوحي بالماء أيضًا.
- **فأبى أكثر الناس إلا كفورًا**: لكن أكثرهم قابلوا النعمة بالجحود والنكران {كفورًا}.

- **ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرًا**: لو كانت مشيئة الله إرسال نذير لكل قرية لفعل، وهنا تباين بين البشرى التي تأتي بها الرياح ونعمة المطر والوحي الذي يريد الله به إحياء القلوب، وبين أن يرسل النذر بالعذاب لكلّ قرية.
- **فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهادًا كبيرًا**: أمر للنبي بعدم مهادنة الكافرين، وبمواجهتهم ومدافعتهم بالحجة والبيان القرآني {به} جهادًا عظيمًا بالحجة والبرهان. وهذا أوّل ذكر للجهاد، وهو هنا الصبر على الجدال ومحاججتهم بالقرآن.
- **مرج البحرين... عذب فرات... ملح أجاج**: خلط ومزج البحرين، العذب شديد العذوبة {فرات}، والملح شديد الملوحة {أجاج}، وهذا يكون بين البحر والنهر (من أسماء الماء العظيم عند العرب البحر كما أسلفنا حتى ولو كان نهرًا)، وثمّة ينابيع مياه عذبة داخل البحر يعرفها الغوّاصون في بلاد البحرين، وهي سمّيت بذلك بسبب هذه الظاهرة.
- **وجعل بينهما برزخًا وحجرًا محجورًا**: جعل بينهما حاجزًا {برزخًا} يمنع اختلاطهما التام، ومانعًا محكمًا {حجرًا محجورًا}. آية كونية أخرى.

- **خلق من الماء بشـــرًا فجعله نســـبًا وصـــهرًا**: خلق الإنســـان من الماء، وجعل منه علاقات القرابة بالدم {نسبًا} والمصاهرة بالزواج {صهرًا}.
- **وكان الكافر على ربه ظهيرًا**: الكافر معين ومســـاعد للشـــيطان وللباطل ضـــد أمر من يرعاه ويحفظه وهو الله.
- **إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلًا**: لا أطلب أجرًا إلا هدايتكم واتخـاذكم طريقًا يوصـــلكم إلى الله. هذا هو الأجر الحقيقي للرسول.
- **وتوكـل على الحي الـذي لا يموت**: الأمر بـالاعتمـاد المطلق على الله الباقي الذي لا يلحقه فناء.
- **وكفى به بذنوب عباده خبيرًا**: يكفي علم الله وإحاطته بذنوب عباده، فهو سيحاسبهم عليها.
- **ثم اســتوى على العرش**: خلق الخلق في ســتة أطوار (يعلمها هو)، فكان الخلق مكان ملكه وسلطانه المستقرّ الذي لا يتزعزع.
- **الرحمن فسئل به خبيرًا**: هذا الإله العظيم هو الرحمن، فاسأل عن اسمه "الرحمن" من يعرف هذا الاسم، وهو

اســـم يعني "مطلق الوســـع"، "منطلق الكون"، كما أسلفنا.

- **وإذا قيل لهم اســـجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن**: إنكارهم لاســـم "الرحمن" وجهلهم (أو تجاهلهم) به، ورفضـــهم للســـجود له. وقد أســـلفنا أن قريشـــا كانت تعترف بالله وتنكر اسم الرحمن له ولا تعرفه.
- **وزادهم نفورًا**: زادهم الأمر بالســـجود للرحمن ابتعادًا وكراهية للحق.
- **بروجًـا**: منـازل للكواكـب والنجوم عظيمـة ومرتفعـة كالقصور أو الأبراج.
- **سراجًا**: مصباحًا مضيئًا وهو الشمس.
- **قمرًا منيرًا**: مضـيئًا بنور، والنور هو الضـوء الذي لا يترك ظلًّا واضحًا.
- **خلفة**: يتعاقبان ويخلف أحدهما الآخر. فيكون للناس فرصة أن يلاحظوا مرّ العمر، فيتذكّروا آخرتهم.
- **لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورًا**: تعاقب الليل والنهار فرصة للتذكر والاعتبار أو للشكر على نعم الله.
- **وعباد الرحمن الذين...**: بداية وصـــف لصـــفات عباد الرحمن المخلصين.

- **يمشون على الأرض هونًا**: يمشون بتواضع وسكينة ووقار دون تكبر أو خيلاء.
- **وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا**: إذا تعرض لهم السفهاء بالقول السيء، أعرضوا عنهم ولم يقابلوهم بالمثل بل قالوا قولًا يسلمون فيه من الإثم ومن أذاهم.
- **يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا**: يقضون ليلهم في عبادة الله بين سجود وقيام في الصلاة.
- **إن عذابها كان غرامًا**: إن عذاب جهنم كان كالضريبة التي يدفعها الغارم، أي دينًا يلاحق أصحابها.
- **ساءت مستقرًا ومقامًا**: بئست جهنم مكان استقرار وإقامة.
- **لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قوامًا**: اعتدالهم في الإنفاق؛ فلا تبذير {يسرفوا} ولا تقتير وبخل {يقتروا}، بل وسطًا عدلًا {قوامًا}.
- **ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق**: اجتنابهم لكبيرة القتل إلا بالحقّ الذي هو استحقاقها للموت بسبب جرم أو نحوه، أو بموتها موتًا طبيعيًّا، والموت حقّ.

- **ولا يزنون**: اجتنابهم لكبيرة الزنا، وتعبير الزنا هنا سبق فكرة أحكام الزواج، فالزنا هو إكراه المرأة على الجماع دون قبول منها ومن أهلها.
- **يلق أثامًا**: يجد عقوبة إثمه وجزاءه.
- **يضاعف له العذاب... ويخلد فيه مهانًا**: عقوبة مرتكب هذه الكبائر (الشرك، القتل، الزنا) دون توبة هي العذاب المضاعف والخلود المهين في النار. وهي من الأمور المحرّمة في كتاب موسى الذي ذكر آنفًا.
- **إلا من تاب وآمن وعمل عملًا صالحًا**: استثناء لمن تاب توبة نصوحًا مقرونة بالإيمان (التزام عهد الأمان، والاطمئنان للدعوة) والعمل الصالح.
- **فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات**: من كرم الله أن يبدّل الصفات السيئة عند هؤلاء فتصير صفات حسنة.
- **يتوب إلى الله متابًا**: فإن توبته مقبولة عند الله قبولًا حقيقيًا.
- **لا يشهدون الزور**: لا يشهدون بالكذب والباطل.
- **وإذا مروا باللغو مروا كرامًا**: إذا مروا بما يؤذي من الكلام الفارغ والسباب، مرّوا كرامًا فلم ينزلقوا إلى مكانة أصحاب هذا اللغو.

- **لم يخروا عليها صمًا وعميانًا**: إذا ذُكّروا بآيات الله، لم يقابلوها بالصمم عن سماعها والعمى عن رؤية الحق فيها، بل يتلقونها بالقبول والتدبر والاتعاظ.
- **هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين**: دعاؤهم بصلاح أزواجهم وأولادهم ليكونوا مصدر رضًا لهم {قرة أعين} وأن تقرّ العين أي ألّا تتطلّع لشيء آخر، فما أرضاك فهو قرّة عينك.
- **واجعلنا للمتقين إمامًا**: أي أن يرزقهم كونهم يؤمّون المتّقين، أي يزورونهم ويعيشون بين ظهرانيهم، والإمامة تأتي بمعنى زيارتهم أو الاختلاط بهم.
- **يجزون الغرفة**: جزاؤهم أعلى منازل السماء (الغرفة) وهي اسم أعلى السماء (السماء السابعة) منذ الجاهليّة.
- **بما صبروا**: بسبب صبرهم على الطاعات وعن المعاصي وعلى أقدار الله.
- **ويلقون فيها تحية وسلامًا**: يُستقبلون في الجنة (ملكوت السماء: الغرفة) بالتحية من الملائكة ومن الله، بوعد بالسلام.

- **قل ما يعبؤا بكم ربي لولا دعاؤكم**: إنّ الله لا يقيم وزنا للناس إذا لم يصدّقوا به، ويلتزموا دينه، ويطلبوا جزاءه.
- **فقد كذبتم فسوف يكون لزامًا**: لكنكم كذبتم، فستكون نتيجة تكذيبكم عذابًا لازمًا عليكم.

مقالة السورة (الفرقان)

تستهل السورة بتعظيم وتمجيد الله الذي تعالى شأنه وكثر خيره وثبت فضله (تبارك)، فهو الذي أنزل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم هذا الكتاب الفارق بين الحق والباطل (الفرقان)، لا ليكون حكرًا على قوم دون قوم، بل ليكون إنذارًا للعالمين جميعًا (ليكون للعالمين نذيرًا). هذا الإله هو مالك السماوات والأرض، لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك في ملكه، وهو الذي خلق كل شيء فأتقنه وضبط مقاديره ونظامه بتقدير محكم (فقدره تقديرًا).

في المقابل، اتخذ المشركون آلهة من دون الله عاجزة لا تخلق شيئًا بل هي تُخلق، ولا تملك لنفسها دفع ضر أو جلب نفع، فضلاً عن أن تملك موتًا أو حياةً أو بعثًا (نشورًا). وأمام هذه الحقيقة، وحين جاءهم الفرقان، لجأ الكفار إلى سلسلة من الاتهامات الباطلة؛ فقالوا: ما هذا القرآن إلا كذبٌ وبهتان

شديد (إفك) اختلقه محمد من عند نفسه (افتراه)، بل وزعموا - في تناقض يكشف اضطرابهم - أنه لم يختلقه وحده، بل استعان عليه بآخرين (وأعانه عليه قوم آخرون). فيأتيهم الرد الإلهي بأنهم بقولهم هذا قد ارتكبوا ظلمًا فادحًا وكذبًا صريحًا (فقد جاءوا ظلمًا وزورًا). لم يتوقفوا عند هذا، بل قالوا هو مجرد قصص الأولين المدونة (أساطير الأولين) استنسخها محمد وطلب كتابتها (اكتتبها)، وهي تُلقَّن له صباحًا ومساءً (تملى عليه بكرة وأصيلًا). فجاء الأمر للرسول أن يرد عليهم بأن من أنزل هذا القرآن هو الله الذي يعلم كل خفيّ ومستتر (السر) في السماوات والأرض، وأن هذا العلم الإلهي المحيط هو مصدر الكتاب، وهو الغفور الرحيم لمن تاب وآمن.

ثم انتقلوا للطعن في شخص الرسول بسبب بشريته: كيف يكون رسولاً وهو يأكل الطعام ويمشي في الأسواق كغيره من الناس؟ (مال هذا الرسول...). واقترحوا بعناد أن يُنزل معه ملك ليساعده في الإنذار، أو أن يُلقى إليه كنز من السماء، أو تكون له حديقة خاصة يأكل منها فلا يحتاج للأسواق! ووصل بهم الأمر إلى اتهامه بأنه رجلٌ واقع تحت تأثير السحر (مسحورًا). يتعجب القرآن من هذه التشبيهات والاعتراضات الباطلة (ضربوا لك الأمثال) التي أضلتهم عن الحق وأعجزتهم عن إيجاد حجة أو طريق مستقيم (فضلوا

فلا يستطيعون سبيلًا). ويؤكد الله عظمته وقدرته (تبارك) بأنه لو شاء لأعطى نبيه في الدنيا أفضل مما يقترحون من جنات وقصور، ولكن حكمته تقتضي غير ذلك.

ثم تكشف السورة عن الدافع الحقيقي وراء كل هذه الاعتراضات: {بل كذبوا بالساعة}، إنه إنكارهم ليوم القيامة والحساب. ولهؤلاء المكذبين أعد الله نارًا شديدة مستعرة (سعيرًا)، تصل من شدة غضبها أن يسمع لها صوت غليان وغضب (تغيظًا) وتتابع أنفاس كأنها تتنفس (وزفيرًا). وإذا أُلقوا في مكان شديد الضيق منها (مكانًا ضيقًا) مقيدين بالسلاسل يقرن بعضهم ببعض (مقرنين)، دعوا هناك بالهلاك والخسران (ثبورًا) من شدة العذاب. فيأتيهم الرد الذي يقطع كل أمل: لا تطلبوا هلاكًا واحدًا فالعذاب ألوان مستمرة، بل اطلبوا هلاكًا كثيرًا أمام العذاب الذي أنتم فيه!

وفي المقابل تمامًا، يُسأل النبي: أهذا المصير خير أم جنة الخلد التي وُعد بها المتقون جزاءً لهم ومصيرًا؟ إنه وعد إلهي ثابت واجب الإنجاز (كان على ربك وعدًا مسؤولًا). وتصور السورة مشهدًا من مشاهد القيامة حين يُحشر المشركون وما كانوا يعبدون من دون الله، فيسأل الله تلك المعبودات (الصالحين منهم كالملائكة أو الأنبياء): {أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل}؟ فيتبرؤون منهم قائلين: {سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من

أولياء}، فكيف نأمر غيرنا بعبادتنا؟ ويفسرون سبب ضلال العابدين: {ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر} أي نسوا رسالة التوحيد {وكانوا قومًا بورًا} أي هالكين فاسدين لا خير فيهم كالأرض البور. فيُقال للمشركين: ها هم معبودوكم قد كذبوكم فيما كنتم تزعمون، فلستم قادرين وقتها على دفع العذاب (صرفًا) عن أنفسكم، ولا تجدون من ينصركم (نصرًا).

وتعود السورة لترد على شبهة بشرية الرسل، مؤكدة أن هذه هي سنة الله في المرسلين جميعًا قبل محمد صلى الله عليه وسلم: {إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق}. وأن تفاوت أحوال الناس في الدنيا هو جزء من الاختبار والابتلاء: {وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك بصيرًا}.

ثم تتناول موقف فئة أخرى من الكفار، أولئك الذين لا يأملون لقاء الله (لا يرجون لقاءنا) لأنّهم يكرهون أن يظهر صدق هذه الدعوة، ويطلبون تعنتًا رؤية الملائكة أو رؤية الله جهرة كشرط للإيمان (لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا). وتبين أن دافعهم هو الكبر المتأصل والتمرد والطغيان العظيم: {لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوًا كبيرًا}. وتخبرهم بأنهم سيرون الملائكة يومًا ما (عند الموت أو القيامة)، ولكنها لن تكون رؤية بشرى لهم كمجرمين، بل سيُقال لهم: {حجرًا محجورًا} أي ممنوعون من الرحمة

والجنة. وتؤكد أن أعمالهم التي عملوها في الدنيا ستكون باطلة لا قيمة لها كالغبار المتناثر (هباء منثورًا). بينما أهل الجنة في مكان استقرار أفضل وراحة أجمل (خير مستقرًا وأحسن مقيلًا).

وتستمر في وصف أهوال يوم القيامة: السماء تتشقق بالغمام، والملائكة تتنزل بكثرة، والملك الحق يومئذ للرحمن وحده (توبيخًا لمن أنكر هذا الاسم من قريش)، ويكون يومًا شديدًا صعبًا (عسيرًا) على الكافرين. وتصور شدة ندم الظالم وهو يعض على يديه حسرة (ويوم يعض الظالم على يديه)، متمنيًا لو أنه اتبع الرسول، ومتحسرًا على اتخاذ قرين السوء صديقًا حميمًا (يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانًا خليلًا)، معترفًا بأن هذا القرين هو من أضله عن القرآن والذكر بعد أن بلغه، ومقرًا بحقيقة أن الشيطان (سواء كان من الجن أو الإنس) دائمًا ما يخذل أتباعه (وكان الشيطان للإنسان خذولًا).

وفي خضم هذا، تنقل السورة شكوى الرسول لربه من إعراض قومه الذي هو فيهم (ليس قومه بمعنى أتباعه) عن القرآن وهجره: {وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورًا}. فيأتيه الجواب مواساة وتثبيتًا: أن هذه هي سنة الله في الأنبياء، فلكل نبي أعداء من مجرمي قومه، ولكن يكفي بالله هاديًا ونصيرًا.

ثم ترد السورة على شبهة أخرى: لماذا لم ينزل القرآن دفعة واحدة؟ (لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة). فتبين الحكمة من نزوله مفرقًا: تثبيت قلب النبي (لنثبت به فؤادك)، وأنّ تنزيله في أرتال أي دفعات (ورتلناه ترتيلًا). وتؤكد أن الله سيمد نبيه بالجواب الحق والبيان الأحسن كلما جاءوه بشبهة (ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرًا). وتعود لتذكر بمصير الذين يُحشرون وهم في غاية الذل (على وجوههم) بأنهم في أسوأ مكانة وأضل طريق.

وتقدم السورة أمثلة تاريخية موجزة أخرى لتأكيد سنة إهلاك المكذبين: قصة موسى وهارون والكتاب الذي أوتيه، وتدمير قومه المكذبين. وقوم نوح الذين أغرقوا لما كذبوا الرسل (فتكذيب رسول واحد كتكذيب للكل)، وجعلهم عبرة للناس. وقبائل عاد وثمود وأصحاب الرس وأجيال وأمم كثيرة (قرونًا بين ذلك كثيرًا) بين أولئك، كلهم جاءتهم الأمثال والإنذارات، وكلهم أُهلكوا هلاكًا تامًا (تبرنا تتبيرا).

وتلفت أنظار أهل مكة إلى أنهم يمرون على أطلال قرية أُهلكت بمطر سوء، ويعرفون قصتها، فلماذا لا يعتبرون؟ {أفلم يكونوا يرونها}؟ وتجيب بأن السبب الحقيقي هو عدم إيمانهم بالبعث والنشور (بل كانوا لا يرجون نشورًا). وتعرض نماذج من استهزائهم بالنبي وتحقيرهم له (إن يتخذونك إلا هزوًا أهذا الذي بعث الله رسولًا)، وافتخارهم

المعكوس بالثبات على الشرك (إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها). وتؤكد أنهم سيعلمون الحقيقة المرة حين يرون العذاب. وتتساءل مستنكرة حال من جعل هواه هو المعبود المطاع (أرأيت من اتخذ إلهه هواه)، وتوضح أن النبي ليس مسؤولاً عن هداية هؤلاء (أفأنت تكون عليه وكيلًا)، فهم كالأنعام في تعطيل عقولهم عن الحق، بل هم أضل.

ثم تدعو السورة إلى التأمل في آيات الله الكونية الدالة على قدرته ورحمته وتدبيره: مد الظل وقبضه، جعل الليل سكنًا (لباسًا) والنوم راحة (سباتًا) والنهار معاشًا وانتشارًا (نشورًا) - وكلها تحمل إشارات للموت والبعث وكشف الضلال بإرسال الرسالة للبشر. إرسال الرياح مبشرة بالمطر (بشرًا بين يدي رحمته)، وإنزال الماء الطاهر (طهورًا) لإحياء الأرض الميتة وسقاية الأنعام والناس الكثيرين. وتشير إلى أن هذا التصريف للآيات والرزق بينهم هو للتذكير، ولكن أكثر الناس قابلوا ذلك بالجحود والنكران (فأبى أكثر الناس إلا كفورًا). وتوضح أن الله لو شاء لبعث في كل قرية نذيرًا، ولكنه جعل الرسالة عامة، ويأمر نبيه بألا يطيع الكافرين وأن يجاهدهم بالقرآن والحجة جهادًا عظيمًا (وجاهدهم به جهادًا كبيرًا). وتذكر بآية أخرى هي التقاء البحرين العذب الفرات والملح الأجاج دون اختلاط تام لوجود حاجز بينهما

(برزخًا وحجرًا محجورًا). وبآية خلق الإنسان من الماء وتكوين علاقات النسب والمصاهرة. ومع كل هذه الآيات، يبقى الكافر معينًا للباطل ضد ربه (وكان الكافر على ربه ظهيرًا).

وتعيد السورة التأكيد على مهمة الرسول كبشير ونذير، لا يطلب أجرًا إلا هداية الناس (إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلًا). وتأمره بالتوكل التام على الله الحي الذي لا يموت، فهو سبحانه خبير بذنوب عباده ومجازيهم عليها. وتذكر بخلق السماوات والأرض في ستة أيام (أي أطوار يعلمها هو ليست كاليوم بين المغرب والمغرب) ثم استواء الله على العرش بما يليق بجلاله، وتلفت النظر إلى اسم "الرحمن" الذي ينكره المشركون (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن)، وتدعو للسؤال عنه أهل المعرفة به، مؤكدة أن هذا الإنكار يزيدهم نفورًا. وتعدد آيات كونية أخرى: السماء ببروجها، الشمس السراج، القمر المنير، وتعاقب الليل والنهار كفرصة للذكر والشكر.

وفي ختام السورة، يأتي وصف تفصيلي رائع لـ "عباد الرحمن"، وهم النموذج العملي للمؤمنين الصادقين الذي يظهر أنّهم اجتمعوا للرسول في مكّة: يمشون على الأرض بتواضع وسكينة (هونًا)، وإذا خاطبهم الجاهلون أعرضوا بسلام (قالوا سلامًا)، يقضون ليلهم في العبادة (سجدًا وقيامًا)،

يدعون ربهم أن يصـــرف عنهم عذاب جهنم لعلمهم بشـــدته وبأنه ملازم لأهله (غرامًا) وســـاءت مســـتقرًا ومقامًا. وهم معتدلون في إنفاقهم فلا إســـراف ولا بخل (لم يســـرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قوامًا)، ويجتنبون الكبائر: الشـــرك، والقتل بغير حق، والزنا. وتوضـــح أن مرتكب هذه الكبائر يلقى عقوبة إثمه (أثامًا) ويضـــاعف له العذاب ويخلد فيه مهانًا، إلا من تاب وآمن وعمل صـــالحًا، فأولئك يبدل الله سيئاتهم من صفات إلى صفات حسنة بكرمه. وهم لا يشهدون بالكذب والباطل (لا يشـــهدون الزور)، وإذا مروا بالكلام الفارغ المؤذي (اللغو) تجاوزوه بكرامة دون أن يتأثروا به أو يخوضـــوا فيه (مروا كرامًا). وهم إذا ذُكِّروا بآيات ربهم تلقوها بوعي وتدبر ولم يقابلوها بالصـــمم والعمى (لم يخروا عليها صـــمًا وعميانًا). ومن دعائهم أن يهبهم الله أزواجًا وذرية يكونون مصـــدر ســـرور وراحة بال (قرة أعين) وأن يجعلهم قدوة صـــالحة للمتقين (واجعلنا للمتقين إمامًا). جزاء هؤلاء بأخلاقهم وأعمالهم هو أعلى منازل الجنة (الغرفة) بسبب صبرهم، ويُستقبلون فيها بالتحية والسلام.

وتختم السورة بخطاب موجه للكفار يؤكد أن الله لا يبالي بهم ولا يقيم لهم وزنًا (قل ما يعبؤا بكم ربي لولا دعاؤكم) أي لا يبالي إلّا بمن آمن به ودعاه، ولكنهم قد كذبوا بالفعل، فسوف يكون العذاب أمرًا لازمًا وحتميًا لهم (فسوف يكون لزامًا).

المعنى الشمولي (الفرقان)

تُجسّـد سـورة الفرقان اسـمها تمامًا، فهي تمثل بيانًا فاصـلاً وحاسـمًا بين الحق والباطل، بين الهدى والضـلال، بين منهج الإيمان والتوحيد ومنهج الشـرك والتكذيب. تتمحور السـورة حول إثبات صـدق القرآن الكريم ونبوة محمد صـلى الله عليه وسلم، وتفنيد الشبهات والاعتراضات التي أثارها المشركون بشكل منظم ومنطقي.

- **الدفاع عن الوحي والرسـالة:** ترد السـورة بقوة على اتهامات المشـركين للقرآن بأنه إفك مفترى أو أسـاطير الأولين، وتؤكد مصـدره الإلهي وعلم الله المحيط. كما ترد على اعتراضاتهم حول بشرية الرسول، مؤكدة أن هذه هي سـنة الله في جميع المرسـلين، وأن المطالبة بالملائكة والكنوز والجنات هي مطالب تعجيزية نابعة من الكبر وإنكار اليوم الآخر.
- **إبراز التوحيد ونقد الشرك:** تؤكد السورة على وحدانية الله، وملكـه المطلق، وقـدرتـه في الخلق والتـدبير، وتنزيهه عن الصـاحبة والولد والشـريك. وتقابل ذلك ببيان عجز الآلهة المزعومة المطلق.
- **سنة الله في المكذبين:** تستعرض السورة مصارع أمم سـابقة (نوح، عاد، ثمود، أصـحاب الرس، قوم لوط،

فرعون) كدليل على سنة الله الثابتة في إهلاك المكذبين بعد إقامة الحجة عليهم، ليكون ذلك إنذارًا لقريش وتسلية للرسول.

- **حتمية الآخرة والجزاء:** تؤكد السورة على حقيقة البعث والحساب (الساعة)، وتصور أهوال يوم القيامة وعذاب الكافرين وندمهم (السعير, ثبورًا, يعض الظالم)، وتقابل ذلك بنعيم المتقين وجزائهم (جنة الخلد).
- **نموذج "عباد الرحمن":** تقدم السورة في ختامها نموذجًا رفيعًا للمؤمنين الصادقين، وهم من اتّبع النبيّ حتّى ذلك الوقت ومن سيلحق بهم، من خلال وصف "عباد الرحمن" بصفاتهم الإيمانية والأخلاقية والسلوكية الراقية (التواضع، الحلم، العبادة، الخوف من الله، الاعتدال، اجتناب الكبائر، الإعراض عن اللغو، التدبر، الدعاء بالصلاح)، ليكونوا ميزانًا يُعرف به الحق، وهو توجيه لهم.
- **تحدي اسم "الرحمن":** يلفت النظر تكرار اسم "الرحمن" في السورة، خاصة في المواضع التي تبرز فيها عظمة الله وملكه وسلطانه، رغم إنكار المشركين

لهذا الاسم، مما يمثل تحديًا لهم وتأكيدًا على أنّ الله هو مطلق الوسع ومبعث الكون وعلّام الغيوب.

إجمالاً، سورة الفرقان هي سورة ردّ الشبهات، تقيم الدليل على صدق الرسالة، وتفند شبهات المعارضين، وترسم بوضوح طريقين لا ثالث لهما: طريق الإيمان والاستقامة المؤدي إلى جنة الخلد، وطريق الكفر والتكذيب المؤدي إلى العذاب الأليم، تاركة الإنسان أمام مسؤوليته في الاختيار فردًا، لا إمّعة يتحرّك كما يحرّكه النافذون في قومه.

مقالات القرآن العظيم 39 | سورة فاطر

تأتي سورة "فاطر"، التي تقدر في ترتيب النزول التقريبي بحوالي الثانية والأربعين، في مرحلة متقدمة من الحوار القرآني مع مشركي مكة. بعد أن عرضت سور سابقة مثل "الفرقان" شبهات القوم وردت عليها، وأشارت لنا بوجود جماعة اتّبعوا محمّدًا، تأتي هذه السورة لتركز على عظمة الخالق وقدرته المطلقة في الخلق والإبداع، وتدبير الكون، والتحكم في مصائر العباد، لتؤكد مجددًا على بطلان الشرك وضرورة إفراد الله بالعبادة والحمد. اسم السورة فاطر، جاء من ورود الكلمة في بدايتها.

تتوجه السورة بخطاب مباشر للناس كافة، تذكرهم بنعم الله وتدعوهم إلى الوفاء بعهده، وتحذرهم من الاغترار بالحياة الدنيا ومن خداع الحالة الشيطانية من الاستكبار والغرور. كما أنها تواسي النبي صلى الله عليه وسلم في مواجهة التكذيب، مؤكدة أن هذه سنة الله في المرسلين، وأن الأمور كلها مرجعها إلى الله. تبرز السورة أيضًا أهمية الخشية القائمة على العلم والمعرفة بالله، وتمجد عباد الله الصالحين الذين يتلون كتابه ويقيمون الصلاة وينفقون، مبشرة إياهم بالتجارة الرابحة مع الله. وفي المقابل، تؤكد على خسران الكافرين وعجز آلهتهم المزعومة، وترسم مصيرهم المحتوم،

مكررة التأكيد على مبدأ المسؤولية الفردية وعدم تغير سنة الله في التعامل مع المكذبين.

إضاءات لغوية (فاطر)

- **فاطر**: من الجذر (ف ط ر) الذي يدل على الشق والخلق، وكلّ ما كان أوّله فاء وآخره راء من الأفعال كان فيه معنى المسافة بين شيئين مثل: فقر وفغر وفجر. فالله هو الذي أبدع السماوات والأرض إبداعًا أوّلًا يختلف بصورة عظيمة عن حالها الذي كانت عليه، وقيل هو الخلق من عدم، وأصحاب هذا القول يرون "فطر" تختلف عن "خلق" التي قد تعني التقدير أو الإنشاء من شيء موجود.
- **أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع**: وصف للملائكة بأنهم رسل أصحاب (أولي) أجنحة متعددة (اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة). الأجنحة هنا غيبية كالملائكة نفهمها ولا نفهم ما تؤول إليه عند إدراكها على حقيقتها، قد تحمل معنى القدرة على الحركة السريعة، أو تعدد المهام والقدرات، أو نطاقات العمل المختلفة، وليس بالضرورة أجنحة طير مادية. العدد قد يشير إلى التنوع والاختلاف في المراتب والوظائف.

- **يزيد في الخلق ما يشاء**: تأكيد على استمرارية قدرة الله الإبداعية، وأنه يضيف إلى خلقه ما يشاء من صفات أو أعداد أو قدرات كيفما تقتضي حكمته.
- **فلا ممسك لها... فلا مرسل له**: بيان للهيمنة الإلهية المطلقة على أسباب الرحمة والرزق؛ فما يفتحه الله من أبواب رحمته لا يستطيع أحد إغلاقه، وما يغلقه ويمسكه لا يستطيع أحد إرساله أو فتحه من بعده.
- **فأنى تؤفكون**: من الإفك (أ ف ك) وهو الصرف والانقلاب عن وجه الحق. وهو سؤال استنكاريّ: فكيف تُصرفون وتُخدعون عن الحق الواضح بعد كل هذه الأدلة؟
- **الغَرور**: صيغة مبالغة مثل فَعول من الغرور (غ ر ر)، وهو المخادع الماهر في الخداع. والمقصود به الشيطان كما سيتقدّم، الذي يغرر بالناس، وكنّا وضّحنا أنّ الشيطان حالة أصابت إبليس وتلبّسته ويمكن أن تصيب البشر، وهي الشطن والبعد عن الحقّ، أو كل ما يخدع الإنسان من زينة الدنيا وغيرها.
- **حزبه**: الحزب (ح ز ب) هو الجماعة والطائفة التي تجتمع على أمر. حزب الشيطان هم أتباعه وأنصاره.

- **أصحاب السعير**: السعير (س ع ر) هو النار المشتعلة والمتوقدة بشدة. وأصحابها هم أهلها الملازمون لها.
- **فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء**: إنّ الله عليم بأعمالهم، فهو بناء على أعمالهم وحالهم، يضلّ من يشاء هو أن يضلّه (زيادة في الضلال)، ويهدي من يشاء (زيادة في الهدى)، وهذه الآية وما جرى مجراها كثيرا ما تفهم خطأ بأنّ الله هو مسبّب الضلال الأوّل، والسياق حكم عليها، فهي متعلّقة بالأعمال التي وردت قبلها، فإذا وردت مرّة أخرى دون ذلك تكون هذه الآية هي المبينة لها، فالأمر متعلّق بالعمل.
- **فلا تذهب نفسك عليهم حسرات**: الحسرة (ح س ر) هي شدة الندم والتلهف على ما فات. لا تهلك نفسك يا محمد غمًا وأسفًا على إعراض هؤلاء المكذبين. فيه تسلية للنبي ونهي عن تحميل النفس فوق طاقتها.
- **الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور**: يضرب الله مثلا هنا والمثل مزدوج، فهو للهدى الذي يحيي القلوب حسب السياق السابق، وللبعث حسب السياق اللاحق، النشور (ن ش ر) هو البعث والإحياء بعد الموت والانتشار. فكما يحيي الله الأرض الميتة

بالمطر، فكذلك وبنفس السهولة يكون بعث الموتى وإحياؤهم. وثمّة قضيّة لغويّة هنا علينا أن نبينها: (أرسل: فعل ماض)، (فتثير: فعل مضارع)، (فسقناه، فأحيينا: فعلان ماضيان) هذه المراوحة بين الماضي والمضارع لها دلالة، فالمضارع وهو (تثير) مرتبط كنتيجة مقصودة للفعل أي لتثير.

- **من كان يريد العزة فلله العزة جميعا**: هذه قرينة على وجود مجموعة يظنّها الناظر ضعيفة تتبّع النبيّ، وهو يدعو من لم يلحق بهم لكي يفعل، ولا يثنيه عن ذلك أنّهم ضعفاء في قومهم، فلله العزّة، ويبدو أنّ كلمة جميعا هنا تعني جمع عزّة الدنيا والآخرة.
- **يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه**: الكلم الطيب (كالذكر والتسبيح والدعاء والقول الحسن) يصعد ويُقبل عند الله، والعمل الصالح هو الذي يرفع هذا الكلم الطيب ويصدقه. فالعمل هو شرط صعود الكلام الطيّب.
- **يبور**: من البوار (ب و ر) وهو الهلاك والفساد والكساد وعدم النفع. مكرهم وتدبيرهم السيء مصيره الهلاك والفشل الذريع.

- **ثم جعلكم أزواجا**: أي جعلكم متباينين منكم المهدي والضالّ، ومنكم الغنيّ والفقير، ومنكم الذكر والأنثى.
- **وما يعمر من معمر... إلا في كتاب**: التعمير هو إطالة العمر. لا يطول عمر أحد، ولا ينقص من عمر آخر (أو من عمره هو بمرور الزمن)، إلا وهو مسجل ومقدر في علم الله (في كتاب)، وهذا ليس يعني بالضرورة سبق القضاء، لكنّه يعني العلم المطلق لله.
- **عذب فرات**: الفرات (ف ر ت) هو شديد العذوبة، السهل المرور في الحلق. وهو رمز للمؤمنين.
- **ملح أجاج**: الأجاج (أ ج ج) هو شديد الملوحة والمرارة والحرقة. والجمع بينه وبين نقيضه الفرات هو إشارة إلى تباين المؤمنين والمكذّبين. ثم يستطرد في بيان أنّ هذه المخلوقات كلّها مفيدة.
- **حلية**: الحلية (ح ل ي) هي الزينة وما يتزين به كاللؤلؤ والمرجان.
- **مواخر**: جمع ماخرة، من المخر (م خ ر) وهو صوت شق السفينة للماء عند جريها. أي ترى السفن تشق عباب البحر جيئة وذهابًا.

- **يولج**: من الولوج (و ل ج) وهو الدخول. يولج الليل في النهار أي يدخل جزءًا من هذا في ذاك فيطول أحدهما ويقصر الآخر والعكس.
- **قطمير**: هي اللفافة أو القشرة الرقيقة جدًا التي تكون على نواة التمر. كناية عن أحقر الأشياء وأقلها قيمة، فالآلهة المزعومة لا تملك حتى هذا الشيء التافه.
- **إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم...**: هذه الأصنام التي تدعون لا تسمع، ولو سمعت لما استجابت، ويوم القيامة ستغطّي شهادتهم على شرككم.
- **ولا ينبئك مثل خبير**: فيها بنية المثل، وهي ذهبت مثلا، لا أحد يستطيع أن يخبرك بحقائق الأمور وعواقبها مثل من خبرها. وربّما فيه إحالة إلى من دعا صنمه فلم يستجب له، وكثيرا ما غضبت العرب على أصنامها لأنّها لم تستجب، فهجتها شعرًا، وهذا القول فيه استمالة لهؤلاء.
- **الفقراء إلى الله**: بيان لحقيقة الإنسان وحاجته الذاتية المطلقة إلى الله في وجوده وبقائه ورزقه وهدايته، فأنتم المحتاجون له مع أنّه هو الذي يدعوكم.

- **الغني الحميد**: هو سبحانه المكتفي بذاته عن كل ما سواه (الغني)، المستحق للحمد والثناء لذاته وصفاته وأفعاله (الحميد).
- **ولا تزر وازرة وزر أخرى**: لا تحمل نفس آثمة (وازرة) إثم (وزر) نفس أخرى. تأكيد على مبدأ المسؤولية الفردية المطلقة. وهذا موجّه لمشركي مكّة الذين يتّبعون كبراءهم ويظنّون أنّهم يحملون الإثم عنهم.
- **إن تدع مثقلة إلى حملها...**: النفس التي أثقلتها الذنوب والخطايا تطلب أن يحمل الآخرون معها فلا يستجاب لها، فكلّ مسؤول عن نفسه وعمله.
- **الحرور**: شدة الحر، أو الريح الحارة (السموم).
- **وما أنت بمسمع من في القبور**: كما أنك لا تستطيع إسماع الأموات في قبورهم، فكذلك لا تستطيع هداية من ماتت قلوبهم وأصروا على الكفر. وهذه الآية دليل على أنّه لا حياة في القبر سوى حياة الآخرة عند البعث. وهي قرينة على أنّ ذكر الأزواج المطّرد في الآيات إحالة إلى طبيعة الخلق (منهم الشاكر ومنهم الكفور).

- **بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير**: البينات هي الحجج الواضـــحات. الزبر جمع زبور، وهي ما يكتب من المواعظ والحكم (كزبور داود). الكتـاب المنير هو العهد المدوّن الذي يحوي الشـــرائع والأحكام وينير الطريق للناس (كالتوراة والإنجيل)، وأفرد الكتاب مع أنّه متعدّد لأنّ الغاية منه واحدة وهي العهد.
- **نكير**: أي "نكيري" وهو عذابي المنكَر الذي أســـتنكر فيه ما كانوا عليه.
- **جدد**: جمع جُدّة، وهي الشـــق في الجبل، فمنها ما هو أبيض وأحمر أو حتّى أسود كالغراب.
- **غرابيب سود**: تأكيد لشدة السواد، فالغربيب هو شديد السواد تشبيهًا بلون الغراب.
- **إنما يخشـى الله من عباده العلماء**: وبما أنّ هذا التنوّع مطّرد في الخلق، فاعلم أنّ الذين سيستجيبون لدعوتك بخشية الله هم من صنف واحد من أصناف الخلق، وهم العلمـاء (بنعم الله) ومقـابلهم الجـاهلون الـذين لا يســتجيبون. وأداة إنّما جاءت للتوكيد والحصـــر، فلن تجد غيرهم مستجيبين. وهذا لا يعني العلماء الطبيعيين أو العلماء بالشرائع، ولكن يعني من يعلم فضل الله.

- **إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة**: هنا أيضًا ثمّ مراوحة بين المضـــارع والماضـــي، والتلاوة هنا الاتّباع، فمن يتّبع عهد الله وأقام الصلاة فهؤلاء يرجون تجارة لن تكسد أو تهلك.
- **والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق...**: أي إنّ ما وصـــلك حتّى الآن من عهد ربّك ومن وحيه هو الذي سيثبت مصدّقًا لما سبقه (مؤيّد له).
- **ثم أورثنا الكتاب الذين اصـــطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفســه ومنهم مقتصـد ومنهم سـابق بالخيرات**: أي إنّ الله يختار أمّة من الأمم بعهده، فهم على أصناف ثلاثة الظالم والمقتصد والسابق بالخيرات، وهذا حدث سابقًا وسيحدث مع هذا الكتاب أيضًا.
- **مقتصد**: من القصد (ق ص د) وهو الاعتدال والتوسط، أي هو من خلط عملًا صـــالحًا وآخر ســيئًا لكن غلب عليه الاعتدال والحقّ.
- **سابق بالخيرات**: المسارع في فعل الخيرات والمتفوّق فيها على غيره.
- **يحلون فيها من أســـاور من ذهب ولؤلؤا**: اللؤلؤ هنا مفعول به أي يحلّون فيها لؤلؤًا، وأســـاور من ذهب،

وهذا مجاز الرخاء في العيش في تلك الأمّة التي نزل عليها القرآن.

- **دار المقامة**: دار الإقامة الدائمة التي لا انتقال عنها (الجنة).
- **نصب**: تعب ومشقة وعناء.
- **لغوب**: إعياء وكلال وفتور. من (ل غ ب).
- **يصطرخون**: يرفعون أصواتهم بالصراخ الشديد طالبين الغوث والنجدة.
- **أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر**: أي ألم نمدّ في أعماركم زمنًا كافيًا ليتذكّر فيه من يمكن أن يتذكّر، فمن تذكّروا فهم من كان يمكن أن يتذكّروا.
- **هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر**: هذه حقيقة الاستخلاف، هي للبشر كافّة، الكافر منهم والمؤمن، وليست كما يظنّ الناس مختصّة بالمؤمنين.
- **مقتا**: أشد البغض والكراهية والسخط.
- **غرورا**: خداعًا ووعدًا باطلاً.
- **أن تزولا**: لئلا تزولا أو خشية أن تزولا عن موضعهما أو نظامهما.

- **إن أمسكهما من أحد**: إن هنا نافية بمعنى "ما"، أي ما يمسكهما أحد غيره لو زالتا.
- **جهد أيمانهم**: أغلظ وأقوى وأشد الأيمان التي يحلفونها.
- **ما زادهم إلا نفورا استكبارا في الأرض ومكر السيئ**: أي إنّ النفور هذا كان استكبارًا وكان تدبير السيّئ من المدبّرين، لأنّهم هدفوا من هذا النفور أن يمنعوا الدعوة ويشوّشوا عليها.
- **ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله**: من الحيق (ح ي ق) وهو الإحاطة والنزول والإطباق. أي لا ينزل ولا يحيط المكر السيء إلا بمن هو أهل أن ينزل به، وهو هنا في هذه الآية صاحب المكر.
- **سنة الأولين**: طريقة الله وعادته الثابتة في التعامل مع الأمم السابقة المكذبة وإهلاكهم.
- **تبديلا... تحويلا**: لا تغيير ولا تحوير أو عدول عن هذه العادة في تعامل الله مع أمثال هؤلاء.
- **فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة**: أي إنّ الأمم المهلكة سابقًا كانت أقوى من أهل مكّة الذين يستكبرون، ولم ينفعها ذلك.

- **ليعجزه**: أي يسبقه ويفلت منه ويعجزه عن إدراكه أو عقابه.
- **ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة**: لو كان الله سيؤاخذ الناس كافّة بما كسب هؤلاء الكفّار لأهلك من على الأرض كلّها، فحتّى الدواب لم تكن لتنجو، ولكنّه يؤخّرهم فإذا جاء ميعاد لقاء الله، بموت الناس فإنّ الله عالم بأحوال العباد من منهم أساء ومن أحسن.

مقالة السورة (فاطر)

الحمد الكامل والثناء الجميل لله وحده، فهو الذي أبدع السماوات والأرض على غير مثال سبق، وشقّها خلقًا أولاً (فاطر السماوات والأرض)، وهو الذي جعل الملائكة رسلاً لتنفيذ أمره، منهم أصحاب قدرات متفاوتة وهيئات غيبية لا ندرك حقيقتها لكننا نفهمها من خلال وصفهم بأنهم {أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع}، إشارة ربما لتعدد مهامهم وقدراتهم وسرعتهم، وهو سبحانه مستمر في الخلق والإبداع فيضيف إلى ما خلقه ما يشاء من صفات أو أعداد أو قدرات (يزيد في الخلق ما يشاء)، إن الله على كل شيء قدير. وما يفتحه الله للناس من أبواب الرحمة والرزق، فلا يستطيع أحد

إمساكه، وما يمسكه هو بحكمته، فلا يستطيع أحد إرساله من بعده (فلا ممسك لها... فلا مرسل له)، وهو العزيز الغالب في ملكه، الحكيم في تدبيره.

يا أيها الناس، تذكروا نعمة الله عليكم، فهل هناك خالق غيره يرزقكم من السماء والأرض؟ لا إله إلا هو، فكيف تُصرفون عن الحق وتُخدعون (فأنى تؤفكون)؟ وإن يكذبوك يا محمد، فلا تحزن، فقد كُذِّبت رسل من قبلك، وإلى الله وحده مصير الأمور كلها. يا أيها الناس، إن وعد الله بالجزاء حق، فلا تخدعنكم الحياة الدنيا بزينتها، ولا يخدعنكم بالله ذلك المخادع الماهر (الغرور)، سواء كان الشيطان أم حالة الشطن والبعد عن الحق التي قد تصيب الإنسان، فيتمادى بالمعصية اتكالاً على المغفرة دون توبة. إن الشيطان (أو حالة الشطن تلك) عدو لكم فاتخذوه عدوًا، فهو لا يدعو أتباعه وجماعته (حزبه) إلا ليكونوا من أهل النار المستعرة (أصحاب السعير). فالذين كفروا لهم عذاب شديد، والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة لذنوبهم وأجر كبير.

أفمن زُيّن له سوء عمله بسبب اتباعه للهوى فرآه حسنًا، كمن هو على هدى وبصيرة؟ إن الله بناءً على ما يسبق من عمل العبد واختياره، يزيد من شاء ضلالاً ويوفق من شاء للهدى (فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء)، فلا تهلك نفسك يا محمد أسفًا وحزنًا عليهم (فلا تذهب نفسك عليهم حسرات)،

إن الله عليم بما يصنعون وسيجازيهم. والله هو الذي يرسل الرياح فتحرك السحاب (فتثير سحابا)، فسقناه إلى أرض قاحلة (بلد ميت)، فأحيينا به الأرض بعد موتها، وهذا مثل مزدوج، فهو دليل على قدرة الله على البعث (كذلك النشور)، ورمز للهدى (الوحي) الذي يحيي القلوب الميتة كما يحيي المطر الأرض.

من كان يطلب العزة الحقيقية والدائمة، فليعلم أن العزة كلها، في الدنيا والآخرة، ملك لله وحده (فلله العزة جميعا). وإليه يصعد القول الطيب، والعمل الصالح هو شرط قبول هذا القول ورفعه (والعمل الصالح يرفعه). أما الذين يدبرون المكايد السيئة (يمكرون السيئات)، فلهم عذاب شديد، ومكرهم وتدبيرهم هذا مصيره الهلاك والفشل والبوار (ومكر أولئك هو يبور). والله هو الذي خلق أصلكم من تراب، ثم تناسلتم من نطفة، ثم جعلكم متنوعين ومختلفين (أزواجا) ذكورًا وإناثًا، مؤمنين وكافرين، أغنياء وفقراء. وما تحمل أنثى ولا تضع إلا بعلمه المحيط، ولا يطال عمر أحد أو ينقص إلا وهو مسجل ومقدر في علم الله الأزلي (إلا في كتاب)، وليس بالضرورة أن يكون ذلك قضاءً محتومًا بقدر ما هو علم إلهي مطلق، وذلك على الله يسير.

ولا يستوي البحران: هذا ماء شديد العذوبة سائغ الشراب (عذب فرات)، وهو رمز للمؤمنين، وهذا ماء شديد الملوحة

والمرارة (ملح أجاج)، رمز للمكذبين. ورغم هذا التباين ففي خلق الله نعمة، فمن كليهما تأكلون لحمًا طريًا وتستخرجون زينة (حلية) تلبسونها، وترى السفن تشق الماء ذهابًا وإيابًا (مواخر) لتبتغوا من فضل الله بالتجارة ولعلكم تشكرون. وهو الذي يدخل الليل في النهار والنهار في الليل في تعاقب دقيق (يولج)، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى. ذلكم هو الله ربكم له الملك كله. أما الذين تدعون من دونه من آلهة مزعومة، فهم لا يملكون حتى القشرة الرقيقة على نواة التمر (قطمير). إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم لعجزهم، ولو فرضنا جدلاً أنهم سمعوا لما استجابوا لفقرهم، ويوم القيامة سيكفرون بشرككم وينكرون عبادتكم لهم. ولا يخبرك بحقيقة الأمر وعجز هذه الآلهة مثل الله الخبير العليم، أو مثل من جرب دعاءها فلم يستجب له من العرب الذين هجوا أصنامهم.

يا أيها الناس، أنتم المحتاجون إلى الله حاجة ذاتية مطلقة (أنتم الفقراء إلى الله)، والله وحده هو المكتفي بذاته عنكم وعن العالمين (الغني)، المستحق للحمد الكامل (الحميد). إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد، وما ذلك بممتنع على الله (بعزيز). ولا تحمل نفس يوم القيامة إثم نفس أخرى (ولا تزر وازرة وزر أخرى)، فكل مسؤول عن عمله (وهذا رد على من يتبعون كبراءهم ظانين أنهم يتحملون عنهم). وإن تطلب نفس

مثقلة بالذنوب من غيرها أن يحمل عنها شـــيئًا من وزرها، فلن يُحمل منه شـيء ولو كان المطلوب منه قريبًا. إنما تنفعك يـا محمـد بـإنـذارك الـذين يخـافون ربهم بـالغيـب ويقيمون الصــلاة، ومن يطهر نفســه (تزكى) فإنما يعود نفع ذلك على نفسه، وإلى الله المصير النهائي.

ولا يســتوي الأعمى عن الحق والبصــير به، ولا الظلمات والنور، ولا الظل والريح الحارة (الحرور). ولا يســتوي الأحياء بالإيمان والأموات بالكفر. إن الله يســمع ويُفهم من يشــاء هدايته، وما أنت يا محمد بقادر على إسماع من ماتت قلوبهم فهم كالأموات في القبور (وما أنت بمســمع من في القبور)، وهذا يؤكد أنه لا حياة في القبر بالمعنى الدنيوي. ما أنت إلا نذير. إنا أرسلناك بالحق بشيرًا ونذيرًا، وما من أمة مضت إلا جاءها نذير. وإن يكذبوك، فقد كذب الذين من قبلهم رســلهم الذين جاؤوهم بالحجج الواضــحات (بالبينات) وبالمواعظ المكتوبة (بالزبر) وبالعهد الذي فيه الشــرائع والأحكام والنور (وبالكتاب المنير). ثم أخذتُ الذين كفروا بالعذاب، فانظر كيف كان إنكاري عليهم وتغييري لحالهم (فكيف كان نكيري).

ألم تر أن الله أنزل من الســماء ماء، فأخرجنا به ثمرات مختلفة ألوانها؟ ومن الجبال شــقوق وطرائق (جدد) بيض وحمر مختلفة الألوان، ومنها ما هو حالك الســواد كأنّها

الغربان (وغرابيب سود). ومن الناس والدواب والأنعام أجناس وألوان مختلفة كذلك. إن هذا التنوع الهائل في الخلق دليل على القدرة والعلم، وإنما يدرك هذه العظمة ويخشى الله حق خشيته عباده العالمون بفضله، الذين عرفوا ونعمه من خلال التفكر في مخلوقاته (وليس بالضرورة علماء الطبيعة أو الشرائع) فمن لم يخشه فهو جاهل به. إن الله عزيز على الجاهلين، غفور للمؤمنين.

إن الذين يتبعون عهد الله (يتلون كتاب الله) وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرًا وعلانية، هؤلاء يرجون تجارة مع الله لن تكسد ولن تهلك (لن تبور). ليوفيهم الله أجورهم كاملة ويزيدهم من فضله. إنه غفور شكور. والذي أوحيناه إليك من الكتاب هو الحق الثابت، يؤيد ويصدق ما سبقه من الكتب. إن الله بعباده خبير بصير.

ثم سنورث عهدنا من نختارهم من عبادنا (هذه الأمة)، فانقسموا - كسنة في الأمم التي ترث الكتاب - إلى ثلاثة أصناف: منهم ظالم لنفسه بتقصيره، ومنهم مقتصد معتدل (مقتصد) يخلط ولكن يغلب عليه الصلاح، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله وتوفيقه (سابق بالخيرات)، وذلك الاصطفاف هو الفضل الكبير. جزاؤهم جنات إقامة دائمة (جنات عدن) يدخلونها، يتنعمون فيها بما يرمز للرخاء كأنهم يلبسون (يحلون) أساور من ذهب ولؤلؤًا، ولباسهم فيها

حرير. وقالوا: الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن، إن ربنا لغفور شكور. هو الذي أنزلنا بفضله دار الإقامة الدائمة (دار المقامة) التي لا يصيبنا فيها تعب (نصب) ولا إعياء (لغوب).

والذين كفروا لهم نار جهنم، لا يُقضى عليهم بالموت فيستريحوا، ولا يخفف عنهم من عذابها. كذلك نجزي كل شديد الكفر (كفور). وهم يصرخون فيها بأعلى أصواتهم (يصطرخون): ربنا أخرجنا نرجع للدنيا نعمل صالحًا غير الذي كنا نعمل! فيأتيهم الرد: {أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير}؟ ألم نمهلكم عمرًا كافيًا ليتذكر فيه من أراد التذكر، وجاءكم الرسول محذرًا؟ فذوقوا الآن جزاءكم، فما للظالمين من نصير.

إن الله عالم غيب السماوات والأرض، عليم بما تخفي الصدور. هو الذي جعلكم أيها البشر - مؤمنكم وكافركم - تخلفون من قبلكم في الأرض (خلائف) موكّلين بالأرض لتصلحوا فيها، فمن كفر منكم فعاقبة كفره عليه، ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا سخطًا وبغضًا شديدًا (مقتا)، ولا يزيدهم إلا هلاكًا وخسرانًا (خسارا).

قل للمشركين: أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله، أروني ماذا خلقوا من الأرض؟ أم لهم نصيب في خلق

السماوات؟ أم آتيناهم عهدًا منّا فهم على حجة وبينة منه؟ بل لا يَعِدُ الظالمون بعضهم بعضًا إلا خداعًا ووعدًا باطلاً (غرورا). إن الله بقدرته يمسك السماوات والأرض لئلا تزولا (أن تزولا)، ولو قدر أنهما زالتا فما يمسكهما أحد غيره (إن أمسكهما من أحد). إنه كان حليمًا غفورًا.

وأقسم المشركون بالله أغلظ الأيمان (جهد أيمانهم) لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من أي أمة سبقت. فلما جاءهم النذير (محمد)، ما زادهم ذلك إلا ابتعادًا ونفورًا عن الحق (إلا نفورا). وكان سبب ذلك هو استكبارهم في الأرض وتدبيرهم للمكر السيّئ (ومكر السيئ) لمنع الدعوة والتشويش عليها. ولا يحيط ولا ينزل المكر السيء إلا بمن هو أهل له، وهو هنا صاحبه الذي دبره (ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله). فهل ينتظرون إلا طريقة الله في إهلاك الأمم المكذبة السابقة (سنة الأولين)؟ فلن تجد لسنة الله تغييرًا (تبديلا) ولا تحويرًا أو عدولاً (تحويلا).

أولم يسيروا في الأرض فينظروا معتبرين كيف كانت نهاية الذين من قبلهم وقد كانوا أشد منهم قوة؟ وما كان الله ليعجزه شيء أو يفلت منه في السماوات ولا في الأرض، إنه كان عليمًا قديرًا. ولو أن الله يؤاخذ الناس جميعًا فورًا بما كسب هؤلاء الكفار من ذنوب، لما ترك على ظهر الأرض دابة حية (ما ترك على ظهرها من دابة)، ولكنه يؤخرهم إلى أجل

محدد (أجل مسمى). فإذا جاء أجلهم وماتوا، فإن الله كان بعباده بصيرًا، عالمًا بأحوالهم وسيجازيهم.

المعنى الشمولي (فاطر)

سورة فاطر هي إعلان لعظمة الله كخالق مبدع للسماوات والأرض (فاطر)، وتأكيد لقدرته المطلقة وهيمنته التامة على الكون ومصائر العباد. تركز السورة على محورية التوحيد وبطلان الشرك، من خلال عرض آيات الله الكونية الباهرة (خلق الملائكة، التحكم بالرحمة، إنزال المطر وإحياء الأرض، تباين البحار، تسخير الأفلاك، تنوع الخلق في ألوانه وأشكاله) ومقارنتها بالعجز المطلق للمعبودات الأخرى التي لا تملك حتى قطمير.

تخاطب السورة الناس كافة لتذكيرهم بحقيقتهم الأساسية أنّهم فقراء إلى الله، مقابل غنى الله المطلق وحمده الذاتي. وتؤكد على مبدأ المسؤولية الفردية (ولا تزر وازرة وزر أخرى)، وأن النجاة أو الهلاك يعتمد على اختيار الإنسان واستجابته لدعوة الرسل. كما تفصل السورة في سنة الله الثابتة التي لا تتغير (فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا) في التعامل مع الأمم المكذبة وإهلاكها بعد الإنذار والإمهال، داعيةً مشركي مكة للاعتبار بمن سبقهم وكانوا أشد منهم قوة.

تصم السورة الكافرين بأنّهم جاهلون بالله وفضله (إنما يخشى الله من عباده العلماء)، وتمجد عباد الله الصالحين الذين يتبعون الكتاب ويقيمون الصلاة وينفقون، وتصف جزاءهم وتجارتهم الرابحة مع الله. وفي المقابل، ترسم صورة لعذاب الكافرين وندمهم وصراخهم اليائس في جهنم.

كما تحتوي السورة على تسلية وتثبيت للنبي صلى الله عليه وسلم في مواجهة تكذيب قومه وإعراضهم، وتوجيهه إلى عدم التحسر عليهم، والتركيز على مهمة البلاغ والجهاد بالقرآن (وجاهدهم به جهادًا كبيرًا). وتختم بتأكيد علم الله المحيط وحلمه في إمهال الناس إلى أجل مسمى، وأنه بصير بأعمال عباده وسيجازيهم عليها.

إجمالاً، سورة فاطر دعوة قوية للعودة إلى طبيعة الإنسان، وشعوره بالتوحيد والإقرار بعظمة الخالق فاطر السماوات والأرض، ونبذ الشرك والغرور، والتفكر في آيات الله، والاعتبار بسنن التاريخ، والاستعداد للمصير المحتوم من خلال الإيمان والعمل الصالح والخشية القائمة على العلم.

مقالات القرآن العظيم 40 | سورة مريم

تأتي سورة "مريم" (قرابة الرابعة والأربعين في ترتيب النزول التقريبي)، بعد سور كرّست الحديث عن عظمة الخلق وسنن الله في الأمم وتحدي الشرك، لتفتح نافذة جديدة على جانب آخر من جوانب القدرة والتدبير الإلهي، وهو جانب الرحمة التي تتجلى في أرق صورها وأكثرها خرقًا للمألوف، خاصة في قصص الميلاد غير المعتاد ليحيى وعيسى عليهما السلام، وتسرد قصّة باختصار إبراهيم مع أبيه، وقصص أنبياء آخرين، وتؤسّس لفهم المسلمين ديانة موجودة بين العرب آنذاك، وتتميّز عنهم برؤيتها لقصّة المسيح عيسى بن مريم وأمّه المختلفة عن رؤيتهم، دون أن تتصادم معهم.

ولأنّ الرسول سبق له أن سافر إلى الطائف، وسبق له قبل ذلك أن يجهر بدعوته في أسواق مكّة، فإنّه لا بدّ أنّه قابل كثيرًا من العرب الذين كانوا على النصرانية (فرقة عربيّة من المسيحيّة لها رؤيتها الخاصّة للمسيح، تختلف عن رؤية العالم المسيحيّ آنذاك)، فهذه السورة أيضًا تخاطبهم لتدعوَهم إلى الإسلام. كما أنّها تنزل والرسول وأتباعه في مكّة في أشدّ الحاجة لنجدة الله بعد أن زادت قسوة قريش وتجبّرها

بهم، ولاحقًا سيقرأ جعفر بن أبي طالب صدر السورة على النجاشيّ ملك الحبشة في الهجرة الثانية إلى الحبشة.

لكنّ السورة وكونها قرأت على النجاشيّ في السنة السابعة للبعثة وهو توقيت الهجرة الثانية إلى الحبشة، يشير بوضوح لماذا ظللنا نؤكّد على كون الترتيب الذي اخترناه لشهرته ترتيبا إشكاليًّا وغير قطعيّ، فها هنا نجد سورة الجنّ تنزل في السنة العاشرة للهجرة بعد زيارة الطائف، ثم نجد سورة مريم بعد سورة الجنّ مع أنّها تتلى على النجاشيّ في السنة السابعة. أي أنّ الترتيب هذا وسواه من ترتيبات النزول إشكاليّة غير ثابتة وغير راجحة وكلّ منهم يواجه مشكلاته، وسنتصدّى الرأي في هذا في مقالة مستقلّة.

إضاءات لغوية

- **كهيعص:** حروف مقطعة تفتتح بها السورة، تشير إلى مادة الوحي اللغوية، وهي ربّما تكون مبتدأً ويكون ذكر رحمة الله بعبده زكريّا هو الخبر، وهي من السور التي أشكلت على الذين حاولوا فهم المقصود من الأحرف المقطّعة لأنّها لا تذكر القرآن بعدها كعادة السور، ولكن كما أسلفنا في مقالة الأحرف المقطّعة ما تزال هذه السورة تتبع الأحرف بذكر القرآن أو الذكر

أو الكتابة، وهذا هنا هو "ذكر رحمة ربّك عبده زكريّا".

- **ذكرُ رحمةِ ربِّك عبدَه زكريا:** هذا التركيب يضع القصة التالية في إطار محدد: ما سيأتي ليس مجرد حكاية، بل هو {ذكرُ} (تجلٍ وتذكير) بـ{رحمةِ} خاصة صادرة عن {ربِّك} (الراعي المربي المنسوب للنبي المخاطَب)، ما يوجه المتلقي لفهم الأحداث ضمن إطار هذه الرحمة الإلهية.

- **نداءً خفِيّا:** وصف النداء بأنه {خفِيّ} يدل على خصوصية المناجاة بين العبد وربه، وربما على رغبة في إخلاص الدعاء بعيدًا عن سمع الناس، وربّما كان زكريّا يطلب على استحياء لأنّه يعلم مناقضة طلبه سنن الخلق.

- **وهَنَ العظمُ مني واشتعلَ الرأسُ شيبا:** صورتان للتعبير عن تقدم السن؛ {وهَنَ العظْمُ} تشير إلى ضعف البنية الداخلية للجسم، و{اشتعلَ الرأسُ شيبا} تشبيه لانتشار الشيب باشتعال النار وهو مظهر الشيخوخة، وكلاهما يبرز حالة الضعف الشديد.

- **ولم أكُنْ بدعائِك ربِّ شـقِيّا:** يقدم زكريا سـابق تجربته مع الله كجزء من دعائه، فهو لم يعهد من دعائه لربه {ربِّ} إلا الاستجابة وعدم الخيبة أو الحرمان {شقِيّا}.
- **وإنّي خفت الموالِيَ من ورائي:** أي خشـيت مصـير الموالين لي من بعد أن تقبض روحي.
- **ولِيًّـا يرثُني ويرِثُ مِن آلِ يعقوبَ:** المطلوب {ولِيّ} (وارث/قـائم بـالأمر)، والإرث المحـدد ليس مـاديًـا بالضرورة، بل هو إرث النبوة والحكمة الممتد من {آلِ يعقوبَ}.
- **لم نجعلْ لهُ مِن قبلُ سمِيّا:** نفي وجود {سمِيّ} لـيحيى، أي ليس له نظير، وقد يكون ذلك في الاسـم ذاته، أو في الصفات.
- **وقـد بلغـتُ مِن الكبَرِ عِتِيّـا:** كلمـة {عِتِيّ} تبـالغ في وصـف الكبر، أي جمع سـنين عاتية، فهي حالة اليبس وتجاوز الحد المعتاد في الكبر.
- **هو عليَّ هيّنٌ وقد خلقتُك مِن قبلُ ولم تكُ شـيئا:** الرد الإلهي {هو عليَّ هيّنٌ} يقابل العجز البشـري بالقدرة الإلهية. والاسـتدلال بالخلق الأول من العدم {ولم تكُ شـيئـا} هو الحجـة الأقوى على إمكـانيـة الخلق في الظروف غير المعتادة.

- **قال ربّي اجعل لي آية:** أي يطلب منه علامة يعرف بها أنّه علم منه الحقّ، ولم يتوهّم استجابته.
- **آيتُك ألّا تُكلِّمَ الناسَ ثلاثَ ليالٍ سوِيّا:** العلامة {آية} التي أعطاها الله لزكريّا هنا داخلية يفهمها هو تتعلق بفقد قدرته على التحدّث إلى الناس {ألّا تُكلِّمَ}، مع الحفاظ على سلامة جسده أي بغير علّة ظاهرة {سوِيّا} ودون أن يتأثّر تواصلك بهم، مما يوجه إلى التأمل والتهيئة.
- **فأوحى إليهِمْ أن سبِّحوا بكرةً وعشِيّا:** استخدام {أوحى} للإشارة، وتوجيه الأمر بالتسبيح {سبِّحوا}، يبين أن الشكر والتعظيم هما الاستجابة العملية الأولى للبشارة.
- **وحنانا مِن لدُنّا وزكاةً:** أي آتيناه الحكم وآتيناه حنانًا من عندنا وزكاة (أي برًّا بالآخرين متجاوزًا لذاته) وكان تقيًّا.
- **وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيّا:** أي إنّ الله يعده بالسلام في مواضع كان السلام فيها عجيبًا، وهذا مفهوم في الآخرة إذ يندر أن يسلم الناس من العذاب، لكنّه يذكر ميلاده وموته، فالسلام في ميلاده صعب إذ يولد لأب وأم عجوزين، والسلام في موته

سلام خاصّ إذ هو من الأنبياء الذين قتلهم قومهم، فهذا السلام أمر غيبيّ نفهم معناه ولا نعرف كيفيّة تحقّقه (تأويله: أي ما يؤول إليه على الحقيقة).

- **واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانًا شرقيًّا:** هنا قرينة على فهمنا لكلمة ذكر في بداية السورة، فهو في هذا الكتاب (القرآن) يذكر رحمة الله بعبده زكريّا، ثم يذكر في الكتاب مريم، وأنّها على غير عادة البنات اعتزلت أهلها في مكان إلى الشرق من مكان سكنهم.
- **فاتَّخذَتْ مِن دونِهِمْ حِجابا:** اتخاذ {حِجاب} يمثل رمزًا لتمام الاعتزال والانقطاع عن أهلها، ونعلم من مواضع أخرى أنّها اعتزلت في محرابها أي كان اعتزالها للعبادة.
- **أرسلنا إليها روحنا:** أي روحًا من عندنا والروح القوّة، وهي هنا ملاك محدّد "جبريل"، وهو حامل الوحي كلّه.
- **فتمثَّلَ لها بشَرًا سوِيّا:** ظهور الروح في هيئة {بشَر سَوِيّ}، أي إنسان طبيعيّ، يبرز عنصر المفاجأة والاختبار لمريم في موقف الخلوة.

- **إني أعوذُ بالرّحمنِ منك إن كنتَ تقِيّا:** استعاذتها باسم {الرّحمنِ} ومخاطبتها للرجل بافتراض تقواه {إن كنتَ تقِيّا} يعكس اعتمادها على الحماية الإلهية ومحاولتها دفع الخطر.
- **أنّى يكون لي ولد ولم يمسَسْني بشَرٌ ولم أكُ بغِيّا:** لا يعقل أن يكون لي ولد! واستنكارها قائم على العادة المعروفة وعلى تأكيد نفي الزواج (يمسسني هنا أي يتزوّجني) ولم أكن باغية أتجاوز حدود الله في العلاقات مع الرجال، وهذا الترتيب مهمّ لأنّه يوضّح أنّ المقصود بالمساس هنا حدوث فعل الزواج، فهذا هو الترتيب المنطقي للإنجاب: لم أتزوّج، ولم أتجاوز الحدود في علاقتي مع الرجال، ولو كان المقصود بالمساس هو أي جماع بين رجل وامرأة لكان النفي الأوّل كافيًا عن النفي اللاحق له.
- **كذلِكِ قال ربّك:** أي هكذا قضى الله وأتمّ بقوله "هو عليّ هيّن".
- **ولِنجعلَه آيةً للناسِ ورحمةً منّا:** بيان الغاية الإلهية من هذا الميلاد المعجز: أن يكون عيسى نفسه علامة {آيةً} ودليلًا، وأن يكون {رحمةً} للعالمين.

- **وكان أمرًا مقضيًّا:** أي إنّ ذلك في حكم الحادث الواقع الذي مرّ وانتهى، وكأنّ البشارة بالغلام كانت هي ذاتها وهب الغلام، فالأمر تمّ، وقيل هو أمر لا نقاش فيه.
- **قالتْ يا ليتَني مِتُّ قبلَ هذا وكنتُ نسْيًا منسِيّا:** تعبير عن أقصى درجات الكرب والألم، لا سيّما وهي تلد وحيدة وتلد دون زواج، وتمني العدم {نسْيًا منسِيّا}.
- **قد جعلَ ربُّكِ تحتَكِ سرِيّا:** الفرَج يأتي مقرونًا بالعون المادي أو البشارة؛ فـ{سرِيّ} قد تعني جدول ماء، أو أيّ إشارة إلى رفعة شأن المولود.
- **فكلي واشربي وقَرّي عينا:** كلي من الرطب، واشربي من الماء الذي خلقناه تحتك، والتعبير بـ{قَرّي عينا} يتجاوز تلبية الحاجات إلى تحقيق السكينة والطمأنينة الداخلية.
- **إني نذرتُ للرّحمنِ صوما فلن أكلّمَ اليومَ إنسِيّا:** {صوم} هنا امتناع عن الكلام والمجادلة، فهي لن تبرّر موقفها، وتظلّ ملتزمة بإعلان صومها عن الكلام.
- **يا أختَ هارونَ:** النداء هنا بمعنى أنّها نظيرة هارون عضيد موسى، أي إنّها نبيّة مكافئة لهارون، ومن يستغرب من وصفها بنبيّة فنذكّره بأنّها قابلت روح الله وتحدّث إليها، وصورتها هذه هي ما يزيد استغرابهم

لفعلتها المزعومة ويتســق مع اتهامهم لها بأنها جاءت بشيء {فرِيّا} أي عظيم منكر.

- **ما كانَ أبوكِ امرَأَ ســـوءٍ وما كانتْ أمُّكِ بغِيّا:** حجتهم قائمة على الأصــل والمنبت، فكيف يصــدر هذا الفعل ممن عرف أبواها بالصلاح؟
- **كيف نكلِّمُ مَنْ كانَ في المهدِ صـــبِيّا:** منطق القوم قائم على المألوف واســـتبعاد خرق العادة (كلام رضـــيع {صبِيّ} في المهد {المهدِ}).
- **قالَ إني عبدُ اللهِ:** أول إعلان لعيسى هو تقرير العبودية {عبدُ اللهِ}، وهو رد حاســـم على أي غلو محتمل في شأنه، ويأتي قبل ذكر الكتاب والنبوة.
- **وجعلَني مبارَكًا أينَ ما كنتُ:** البركة هنا حالة ملازمة له أينما حل {أينَ ما كنتُ}.
- **وأوصـــاني بالصـــلاةِ والزكاةِ ما دمتُ حيّا:** الوصـــية بالصـــلاة والزكاة تظهر اســـتمرارية هذه التشـــريعات الجوهرية في رسالات الأنبياء، وأنها واجبات مستمرة مدى الحياة {ما دمتُ حيّا}.
- **وبرًّا بوالدتي ولم يجعلْني جبّارا شـــقِيّا:** يثبت هنا أنّه على عكس المخلوقات له أمّ فقط، ثم يأتي نفيه لصفات

التجبر {جبّار} والشـقاء {شـقِيّ} يحدد طبيعة رسـالته القائمة على الرحمة والتواضع.

- **والسـلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيًّا:** هذا وعد الله على لسـان رسـوله بالسـلام له في حال الولادة غير الطبيعية، وفي حال البعث، وما بينهما حال الموت الذي ستكون له ملابساته، وسيكون عجيبا أن يحظى بالسلام حينه.
- **ذلك عيسـى بن مريم قولَ الحقِّ الذي فيهِ يمترُونَ:** توصـيف إلهي لكون الخبر الذي أخبر به عن عيسـى هو قول الحقّ الذي ما يزال الناس يتجادلون حوله دون دليل، ليفصـل في النزاع والجدل الدائر حوله {يمترُونَ}.
- **ما كانَ للهِ أن يتَّخِذَ مِن ولَدٍ سـبحانَه:** {ما كانَ للهِ} صـيغة تنفي الإمكانية ذاتها لاتخاذ الولد عن الله، ويتبعها التنزيه {سبحانَه} تأكيدًا لغناه المطلق.
- **كنْ فيكونُ:** بيان لكيفية الخلق الإلهي، وأنها تتعلق بمحض الإرادة والأمر المباشـر {كُنْ} دون الحاجة لأسباب أو وسائط مادية كالتوالد.

- **وإنّ الله ربّي وربّكم...:** إمّا أن يكون هذا القول تتمّة قول عيسى لقومه، أو أنّه استئناف على لسان محمّد يخاطب أهل الكتاب به.
- **فاختلَفَ الأحزابُ مِن بينِهِمْ:** الإشارة إلى اختلاف {الأحزابُ} (الفرق والجماعات) تبين أن الابتعاد عن {قولَ الحقِّ} يؤدي إلى التفرق والنزاع، وهذا الاختلاف قد يكون حول طبيعة المسيح، أو مقولة أنّ لله ابن.
- **أسمِعْ بهِمْ وأبصِرْ يومَ يأتونَنا:** صيغة التعجب تبرز المفارقة بين إدراكهم الحاد للحقائق يوم القيامة وبين ضلالهم المبين في الدنيا.
- **وأنذِرْهُمْ يومَ الحسرةِ:** تسمية يوم القيامة بهذا الاسم يركز على الشعور الغالب فيه وهو الندم {الحسرةِ}.
- **إنّا نحنُ نرِثُ الأرضَ ومَنْ عليها:** تقرير للملكية الإلهية المطلقة وفناء الخلق {نرِثُ الأرضَ}.
- **واذكر في الكتاب إبراهيم إنّه كان صدّيقًا نبيًّا:** ذكر آخر لإبراهيم وقرينة أخرى على فهم الذكر في أوّل السورة. ويلفت النظر هنا ورود صيغة صدّيق ونبيّ في آن معًا في وصف إنسان واحد، وهما في العادة تكونان لشخصين مختلفين، وهو يختلف عن وصف موسى الذي سيأتي بعد قليل "رسولا نبيّا".

- **يـا أبَـتِ:** تكرار هـذا النـداء من إبراهيم يظهر الأدب والرفق في دعوة الأقربين.
- **لأرجُمَنَّك واهجُرْني ملِيّا:** رد الأب بالتهديد {لأرجُمَنَّك} والطرد {واهجُرْني ملِيّا} يمثل عنف الرفض للحق عند العجز عن مواجهة الحجة.
- **إنّهُ كانَ بي حفِيّا:** وصف الله بأنه {حفِيّ} بإبراهيم، أي لطيف بـه ومكرم لـه، يبرر طلبـه المغفرة لأبيـه وثقتـه في استجابة الله له.
- **لسـانَ صـدقٍ علِيّا:** الذكر الحسـن والسـمعة الطيبة بالصـدق {لسـانَ صـدقٍ علِيّ} هي من النعم التي يمن بها الله على أنبيائه.
- **وقرَّبْناهُ نجِيّا:** مكانة موسـى الخاصـة تتجلى في تقريبه للمناجاة {نجِيّا} أي قرّبناه بكونـه نجيًّا أي مخاطبًا في منـاجـاة، والمنـاجـاة بعكس المنـاداة حـديث بصـــوت خفيض.
- **صـــادِقَ الوعدِ:** إبراز صـــفة الوفاء بالوعد {صـــادِقَ الوعدِ} كقيمة مركزية في شخصية إسماعيل.

- **خرُّوا سُـجَّدًا وبُكِيّا:** وصـف حال الأنبياء عند سـماع آيات الرحمن {خرُّوا سُـجَّدًا وبُكِيّ} يظهر عمق التأثر والخشوع والاستسلام للحق.
- **فخلَفَ مِن بعدِهِمْ خَلْفٌ أضـاعوا الصـلاةَ واتَّبعوا الشّـهواتِ فسـوف يلقون غيًّا:** كلمة {خَلْف} (بسـكون اللام) غالبًا ما تشـير للخلف السـيء، وسـبب ضـلالهم محدد في: إضـاعة الصـلة بالله {أضـاعوا الصـلاةَ} والانغماس في الملذات {واتَّبعوا الشّـهواتِ}، والغيّ الضلال والهلاك، وهو هنا الهلاك.
- **إنّـهُ كـانَ وعدُهُ مـأتِيّـا:** تـأكيد على أن وعد الله بـالجنـة للمتقين {مأتِيّ} أي آتٍ لا محالة ومتحقق.
- **لا يسمعونَ فيها لغوًا إلا سلاما:** من نعيم الجنة طهارة بيئتها السـمعية من الكلام الباطل {لغو} واقتصـارها على السلام والقول الطيب {سلاما}.
- **وما نتنزَّلُ إلا بأمرِ ربِّك:** قول منسـوب للملائكة يؤكد خضـوعهم لأمر الله وأن نزول الوحي وتوقيته بتدبير إلهي.
- **وما كانَ ربُّك نسِيّا:** نفي صفة النسيان عن الله يتضمن كمال علمه وإحاطته وحفظه لأعمال عباده.

- **هل تعلمُ لهُ سمِيّا:** استفهام إنكاري يفيد نفي وجود أي مثيل أو نظير {سمِيّ} لله تعالى، تأكيدًا لتفرّده المطلق، وهنا يتّضح معنى سميّ التي وردت أوّل السورة في يحيى.
- **لنحشُرَنَّهُمْ والشياطينَ:** الحشر يوم القيامة سيضم الكافرين مع قرنائهم من الشياطين أو مع نظرائهم في التمرد.
- **وإنْ منكُمْ إلا وارِدُها:** لأنّه يذكر نجاة الذين اتّقوا بعد ذلك "ننجّي الذين اتّقوا"، فإنّ الكلام هنا عن البشر كافّة، لكنّ معنى واردها مقترن بالنجاة، فإذا كانت النجاة بالتقوى، فهي نجاة في الدنيا، ولذلك فالإشراف على جهنّم يكون بوشك الوقوع فيها معنويًّا بسبب الاختبارات التي يتعرّض لها التقاة والعصاة، فأمّا الذين اتّقوا فهم ناجون منها. وهذا لا يعني أنّ كلّ الخلائق ستعذّب في الجحيم زمنًا كما ظنّ بعض من تصدّى لشرح القرآن.
- **أيُّ الفريقينِ خيرٌ مقاما وأحسنُ نديّا:** مقياس المفاضلة عند الكافرين دنيوي بحت: المكانة الاجتماعية {مقاما} والمظهر الاجتماعي {نديّا}.

- **هُمْ أحســنُ أثاثا ورِئْيا:** الرد بأن الأمم الســابقة كانت أكثر منهم متـاعًـا {أثـاثـا} ومظهرًا {رِئْيـا}، ممـا يبطـل مقياسهم المادي.
- **فليمدُدْ لهُ الرّحمنُ مدّا:** التعبير بصـيغة الأمر {فليمدُدْ} يفيد تقرير سنة الله في الإمهال والاستدراج لمن اختار الضلالة.
- **أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا:** يقال إنّها نزلت في رجل "العاص بن وائل" أجّل قضاء دينه سخريّة من مسلم "خبّاب بن الأرتّ"، فقال إنّه إذا بُعث من الموت سيعود لماله وولده وسيردّ إليه ماله.
- **ونرِثُهُ ما يقولُ ويأتينا فردا:** مصــير المتكبر بما يملك هو أن يرثه الله {ونرِثُهُ ما يقول} أي سـنرث منه المال والولد، ويأتي للحساب وحيدًا {فردا}.
- **سيكفُرونَ بعبادتِهِمْ ويكونونَ عليهِمْ ضِدّا:** المعبودات الباطلة ستتبرأ {سيكفُرونَ} ممن عبدوها وتكون خصمًا {ضِدّا} لهم.
- **أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزُّهُمْ أزّا:** أرسل هنا بمعنى ترك لا بمعنى أنّ الشياطين رسل من الله، الفعل {تؤزُّ} بصيغته وصوته يوحي بالتحريض المستمر من الشياطين للكافرين.

- **إنّما نعُدُّ لهُمْ عدّا:** أسلوب {نعُدُّ ... عدّا} يؤكد دقة الإحصاء الإلهي لأفعالهم، وأن الإمهال له أجل محدد.
- **إلا مَنِ اتَّخذَ عندَ الرّحمنِ عهدا:** هذه الجملة تأتي في سياق وصف أهل جهنّم، فهي تقول إنّهم لم يتّخذوا عند الله عهدا، فليس لهم شفاعة.
- **شيئًا إدّا:** وصف شناعة وقبح ادعاء الولد لله بأنه أمر {إدّ} أي عظيم منكر فظيع.
- **هل تُحِسُّ منهُمْ مِن أحَدٍ أو تسمعُ لهُمْ رِكْزا:** الاستفهام الختامي يصور الفناء التام الذي لا يترك أثرًا {تُحِسُّ} ولا صوتًا خافتًا {رِكْز} للأمم المكذبة.

مقالة السورة (مريم)

تفتتح السورة بحروف مقطّعة هي مادّة الذكر الذي سيحدثه الله لنا في هذه السورة، ويأتي بعدها مباشرة كلمة "ذكر"، وهذا الذكر هو الحديث عن رحمة الله التي تجلت في استجابته لدعاء عبده زكريا الخفي، حين ناجى ربه في ضعف وشيبة، شاكيًا وهن عظمه واشتعال رأسه شيبًا، لكنه لم يفقد الأمل قط، فهو لم يعهد من ربه إلا الاستجابة {ولم أكُنْ بدعائِك ربِّ شقِيّا}. كان خوفه من ضياع إرث النبوة

والحكمة من بعده وترك من والاه دون هادٍ يهديهم {وإني خِفتُ الموالِيَ مِن ورائي}، مع واقع حاله من كبر السن وعقم زوجته. فطلب من الله هبة خاصة {مِن لدُنكَ}، وليًا يرث هذا الإرث الروحي ويكون مرضيًا عند الله. فجاءت البشرى الإلهية بغلام اسمه يحيى، ليس له مكافئ في الناس بأنّه ولد لامرأة عاقر ورجل شيخ {لم نجعلْ لهُ مِن قبلُ سمِيّا}، مما أثار دهشة زكريا الطبيعية وتساءله عن كيفية حدوث ذلك في ظل الأسباب المادية المانعة {أنّى يكونُ لي غلامٌ... وقد بلغتُ مِن الكبَرِ عِتِيّا}. فكان الرد الإلهي بأن الأمر هيّن على قدرة الله التي أوجدته هو نفسه من العدم، وأن علامة تحقق الوعد هي منعه من الحديث مع الناس بصورة طبيعية ثلاث ليال، وهو سويّ قادر على التواصل معهم بصورة أخرى، فخرج على قومه موحيًا إليهم بطلب التسبيح بكرة وعشيًا. ثم تنتقل الآيات لتصف يحيى الذي أوتي الكتاب والحكمة صغيرًا، ومنح عطفًا خاصًا وطهارة وتقوى، وكان بارًا بوالديه غير متجبر أو عاصٍ، واستحق السلام الإلهي في مراحل حياته الحاسمة: يوم مولده وموته وبعثه، سلامًا لا نعرف كيفيّة تحقّقه في الموقف الذي يندر فيه السلام.

بعد ذلك، يأمر الله نبيه أن يذكر في هذا الكتاب قصة مريم، حين اعتزلت أهلها في مكان شرقي للعبادة، واتخذت حجابًا ينقطع به أثرهم عنها. هنا أرسل الله إليها روحه (جبريل)

متخذًا هيئة بشر سويّ، ففزعت منه واستعاذت بالرحمن، مستثيرة فيه وازع التقوى إن كان مؤمنًا. فطمأنها بأنه رسول من ربها ليهبها غلامًا طاهرًا {زكِيّا} ويخرج فضله لغيره كأنّه العطر. استنكرت مريم ذلك استنادًا إلى نفيها لأي علاقة زواج وعفّتها {ولم يمسَسْني بشَرٌ ولم أكُ بغِيّا}. فأكد لها الرسول أن الأمر هين على الله، وأن الغاية هي جعل هذا الغلام آية للناس ورحمة، وأن الأمر الإلهي قد قُضي. فحملته وانتبذت به مكانًا بعيدًا. ولما ألجأها ألم المخاض إلى جذع نخلة، تمنت الموت والنسيان خوفًا مما سيقوله الناس. فناداها ولدها من تحتها (عيسى) يطمئنها بألا تحزن، وأن ربها قد جعل تحتها نبع ماء {سرِيّا}، وأمرها بأن تهز جذع النخلة لتتساقط عليها رطبًا طريًا {جنِيّا} أي كأنّها جنيت عن الشجر للتوّ، وأن تأكل وتشرب وتهدأ نفسها {وقَرّي عينا}. وأرشدها إذا رأت أحدًا أن تعلن نذرها للرحمن بالصمت عن الكلام في ذلك اليوم.

فأتت به قومها تحمله وهي عالمة بقدرته على الكلام لأنّه كلّمها من قبل، فواجهوها بالاتهام الصريح واللوم الشديد، مستنكرين فعلتها ومذكرين إياها بمكانتها الإلهيّة وشرف أهلها {يا أختَ هارونَ ما كانَ أبوكِ امرَأَ سوءٍ وما كانتْ أمُّكِ بغِيّا}. فأشارت إلى الطفل، فزاد استغرابهم وتعجبهم: {كيف نكلِّمُ مَنْ كانَ في المهدِ صبِيّا؟}. وهنا نطقت المعجزة، فقال

عيسى: {إني عبدُ اللهِ}، مؤكّدًا عبوديته قبل كل شيء، ثم ذكر ما أوتيه من عهد النبوة، وما جُعل فيه من بركة أينما كان، وما أُوصي به من صلاة وزكاة طوال حياته، والبر بوالدته، ونفى عن نفسه صفات التجبر والشقاء. وأعلن السلام الإلهي عليه في مراحل حياته الثلاث كما كان ليحيى، وهي مراحل كانت مظنّة الشقاء لا السلام.

تعقب السورة على هذه القصة بأن هذا {قولَ الحقِّ} الذي لا يزال الناس يجادلون فيه {يمترُونَ}، وتنزه الله عن اتخاذ الولد {ما كانَ للهِ أن يتَّخِذَ مِن ولَدٍ سبحانَه}، فقدرته تتجلى في قوله إذا أراد أن يخلق "كن" فيخلق ما يريد {كنْ فيكونُ}. وتؤكد على لسان عيسى (أو محمد) أن الله هو الرب الواحد للجميع، وأن عبادته هي الصراط المستقيم. وتشير إلى أن الاختلاف والتحزب {فاختلَفَ الأحزابُ} كان نتيجة حتمية للانحراف عن قول الحق، وتتوعد الكافرين بمشهد يوم عظيم. وتلفت النظر إلى شدة سمعهم وبصرهم يوم القيامة في مقابل ضلالهم في الدنيا {أسمِعْ بهِمْ وأبصِرْ}، وتأمر النبي بإنذارهم بيوم الحسرة حين يقضى الأمر وهم في غفلة، وتؤكد أن الله هو الوارث الأبدي للأرض ومن عليها.

ثم تستدعي السورة قصة إبراهيم {صِدِّيقًا نَّبِيًّا} وحواره المتلطّف مع أبيه {يا أبَتِ}، حيث ينكر عليه عبادة ما لا يسمع ولا يبصر، ويعرض عليه اتباعه ليهديه صراطًا مستقيما

"سـويّا"، ويحذره من عبادة الشـيطان الذي عصـى الرحمن، ومن عذاب الرحمن الذي قد يمسه فيكون وليًا للشيطان. يقابل الأب هذا النصـــح بالتهديد بالرجم والطرد {واهجُرْني ملِيّا}. فيرد إبراهيم بالسلام {سلامٌ عليكَ} والوعد بالاستغفار له ثقةً بلطف ربـه بـه {إنّـهُ كـانَ بي حفِيّـا}، ويعلن اعتزالـه لهم ولمعبوداتهم ودعاءه لربه وحده. فكان جزاء هذا الاعتزال أن وهب الله له إســحاق ويعقوب وجعلهم أنبياء، ووهب لهم من رحمته ذكرًا حسنًا وسمعة عالية بالصدق {لسانَ صدقٍ علِيّا}.

وتنتقل لذكر موســى الذي كان {مُخلَصــا} (اصــطفاه الله) ورسـولًا نبيًا، وكيف ناداه الله من جانب الطور الأيمن وقربه للمناجاة {نجِيّا}، ووهب لـه أخاه هارون نبيًا ليعينـه. ثم تذكر إسـماعيل الذي كان {صـادِقَ الوعدِ} ورسـولًا نبيًا، يأمر أهله بالصـلاة والزكاة وكان مرضـيًا عند ربه. وتذكر إدريس الذي كان صدّيقًا نبيًا ورفعه الله مكانًا عليًا.

وتجمع الســورة هؤلاء الأنبياء وغيرهم ممن أنعم الله عليهم من ذرية آدم ونوح وإبراهيم وإسـرائيل، وتصـف حالهم عند ســماع آيات الرحمن بأنهم {خرُّوا سُــجَّدًا وبُكِيّا}. ثم تذكر الأجيال السـيئة {خَلْف} التي أتت بعدهم فأضــاعت الصــلاة واتبعت الشــهوات، وتتوعدهم بالهلاك {غَيّا}. وتســتثني من تاب وآمن وعمل صــالحًا، فتعدهم بدخول جنات عدن التي وعد بها الرحمن بالغيب، وتصــف بعض نعيمها كالســلام

الخالص من اللغو، والرزق الدائم {بُكرةً وعشِـيّا}، مؤكدة أن هذه الجنة ميراث للمتقين.

وتأتي آية على لسـان الملائكة {وما نتنزَّلُ إلا بأمرِ ربِّك} لتطمئن النبي بأن تأخر الوحي أحيانًا هو بأمر الله الذي له علم ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك، وأنه سـبحانه ليس {نسِـيّا}. وتجدّد التأكيد على ربوبيته للسماوات والأرض وما بينهما، والأمر بعبادته والاصطبار عليها، وتحدي البشر أن يجدوا له مثيلًا أو نظيرًا {هل تعلمُ لهُ سمِيّا}.

وتعود السـورة لمواجهة منكري البعث، فتسـعرض قول الإنسان المستبعد {أءِذا ما مِتُّ لسوف أُخرَجُ حيًّا}، وترد عليه بتذكيره بخلقه الأول من لا شيء. وتقسم بحتمية حشرهم مع الشـياطين وإحضـارهم حول جهنم، ثم انتزاع الأكثر تمردًا {أشَـدُّ على الرّحمنِ عِتِيّا} ليكونوا أولى بدخول النار. وتؤكد أن الجميع يتعرّض لاختبارات توشـك أن تودي به إلى النار {وإنْ منكُمْ إلا وارِدُها}، ثم ينجي الله المتقين ويذر الظالمين فيها.

وتفضح السورة منطق الكافرين القائم على المقاييس المادية {أيُّ الفريقينِ خيرٌ مقاما وأحسنُ نديّا}، وترد عليهم بأن الأمم المهلكة قبلهم كانت أكثر منهم متاعًا ومظهرًا {هُمْ أحسنُ أثاثا ورِئْيا}. وتكشف عن سنة الاستدراج {فليمدُدْ لهُ الرّحمنُ مدّا}

حتى إذا رأوا العذاب أو الساعة علموا من هو الأضعف والأقل نصرة. وتؤكد أن الله يزيد المهتدين هدى، وأن الأعمال الصالحة هي الأبقى خيرًا عند الله. وتتعجب من حال الكافر الذي يزعم أنه سيؤتى مالًا وولدًا في الآخرة، متسائلة إن كان اطلع على الغيب أو اتخذ عند الرحمن عهدًا، وتتوعده بكتابة قوله ومد العذاب له، وأن الله سيرثه ما يقول وسيأتيه وحيدًا.

وتدين السورة اتخاذ آلهة من دون الله طلبًا للعزة، مؤكدة أن هذه الآلهة ستتبرأ منهم وتكون خصمًا عليهم {ضِدّا}. وتشير إلى أنّ الله ترك "أرسل" الشياطين تُحرِّض الكافرين على الشر باستمرار {تؤزُّهُمْ أزّا}، وتأمر النبي بعدم الاستعجال عليهم فأفعالهم معدودة وكذلك أيّامهم. وتصور مشهد القيامة حيث يحشر المتقون وفودًا مكرمة إلى الرحمن، ويُساق المجرمون عطاشًا إلى جهنم، وأن الشفاعة محصورة بمن اتخذ عند الرحمن عهدًا.

وتستنكر السورة بشدة مقولة اتخاذ الرحمن ولدًا، وتصفها بأنها دعوة مستنكرة {شيئًا إدّا} تكاد تتفطر له السماوات وتنشق الأرض وتخر الجبال، وتنزه الرحمن عن ذلك، مؤكدة أن كل من في السماوات والأرض عبيد له، وأن الله أحصاهم وسيأتونه يوم القيامة فرادى. وتبشر المؤمنين الصالحين بأن الرحمن سيجعل لهم مودّة {وُدّا} إذ هم يلقون

ما يلقون من الكافرين. وتخاطب النبي بأن القرآن قد يُسِّـــر بلسـانه لغاية التبشـير والإنذار، وتختم بتذكير أخير بمصـير الأقوام المهلكة التي لم يبق لها أثر محســـوس أو صـــوت مسموع {هل تُحِسُّ منهُمْ مِن أحَدٍ أو تسمعُ لهُمْ رِكْزا}.

المعنى الشمولي

تتمحور ســـورة مريم حول تجليات رحمة الله {ذكرُ رحمةِ ربِّك} وقدرته المطلقة التي تخرق نواميس الكون المعتادة، متخذة من قصـص الميلاد الإعجازي ليحيى وعيسـى عليهما السلام برهانًا ساطعًا على ذلك. السورة تضع المستمع أمام حقيقة أن الأســـباب المادية، مهما بدت قاطعة في المنطق البشـــري (كبر الســـن، عقم المرأة، عـدم زواج المرأة وعذريّتها)، لا تحدّ قدرة الله {هو عليَّ هيِّنٌ}.

تُبرز الســـورة مكانة مريم ابنة عمران كنموذج للمصـــطفاة المنقطعة للعبادة، وتفصـــل في تجربتها الإيمانية والإنســـانية الفريدة، وما واجهته من تحديات وابتلاءات، وكيف أيدها الله بالمعجزات ورزقها الطمأنينة {وقَرِّي عينا}. وتأتي قصـــة المسيح عيسى بن مريم لتكون "قول الحق" الفاصل في شأنه، مؤكـدة على عبوديتـه المطلقـة لله {إني عبـدُ اللهِ} ونبوتـه ورسـالته القائمة على البركة والرحمة ونفي التجبر والشـقاء،

ومنزهة الله تعالى عن اتخاذ الولد بشكل قاطع {ما كانَ للهِ أن يتَّخِذَ مِن ولَدٍ}.

تنسج السورة خيوطًا تربط بين الأنبياء، فتستدعي قصص زكريا ويحيى وإبراهيم وموسى وهارون وإسماعيل وإدريس، لتؤكد على وحدة الرسالة الإلهية عبر التاريخ، وتبرز الصفات المشتركة بين هؤلاء المصطفين من الصدق والوفاء بالعهد والإخلاص والخشوع عند ذكر آيات الرحمن {خرُّوا سُجَّدًا وبُكِيّا}. وفي المقابل، تظهر سنة التدهور والانحراف في الأجيال اللاحقة التي تضيع الصلة بالله وتتبع الشهوات {فخلَفَ مِن بعدِهِمْ خَلْفٌ أضاعوا الصلاةَ}.

تؤكد السورة كذلك على حتمية البعث والحساب {يومَ الحسرةِ}، والعودة إلى الله {إنّا نحنُ نرِثُ الأرضَ ومَنْ عليها وإلينا يُرجَعون}، وتصور بإيجاز مآل المتقين في جنات عدن ومآل المجرمين في جهنم، وترد على شبهات منكري البعث ومنطقهم المادي في تقييم الأمور {أيُّ الفريقينِ خيرٌ مقاما وأحسنُ نديّا}.

وفي الختام، تجدد السورة التأكيد على وحدانية الله المطلقة {هل تعلمُ لهُ سميّا}، وتطمئن النبي بأن الوحي ينزل بأمر الله، وأن الله ليس غافلاً {وما كانَ ربُّك نسِيّا}، وتحدد مهمة القرآن والرسول في التبشير والإنذار، تاركة الإنسان أمام مسؤولية

الاختيار بين اتباع الهدى أو الإصرار على الضلال ومواجهة العاقبة المحتومة التي حلت بمن سبق من المكذبين. إنها دعوة للعودة إلى الرحمة والتوحيد والعبودية الخالصة لله.

مقالات القرآن العظيم (التسلسل التقريبي 45) | سورة طه

تأتي سورة "طه" (قرابة الخامسة والأربعين في ترتيب النزول التقريبي)، بعد سورة مريم التي ركزت على تجليات الرحمة الإلهية والقدرة الخارقة، لتقدم بُعدًا آخر في علاقة الله بأنبيائه ورسله، وتحديدًا في مواجهة التحديات الكبرى للدعوة وتكاليفها النفسية والعملية، وهي تأتي أثناء اشتداد الأذى على مسلمي مكّة من الكفّار، وتتواصل مع أقوام كتابيّة أخرى وهم يهود العرب أيضًا، إذ تتوسّع في قصّة موسى، فهي لهذا وهذا، إذ إنّها تقدّم نموذجًا متكاملًا للنبي في تلقي الرسالة، ومواجهة الطغيان، والتعامل مع تحديات قيادة قومه، ولتكون تسلية وتثبيتًا للنبي محمد في مواجهة عناد قريش وتكذيبها.

تختم السورة بتوجيهات مباشرة للنبي محمد بالصبر على أقوال المكذبين، والمداومة على التسبيح والذكر في أوقات محددة، والإعراض عن زهرة الحياة الدنيا، والأمر بالصلاة والصبر عليها، مع التأكيد على أن العاقبة للمتقين، وأن القرآن هو الحجة البينة الكافية، وتترك الجميع أمام حقيقة الانتظار ليروا من هم أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى. إنها سورة التسلية والتثبيت، وبيان منهج الأنبياء في الدعوة والصبر، وتأكيد على حقائق التوحيد والبعث والجزاء.

إضاءات لغوية (طه)

- **طه:** حروف مقطعة، وظيفتها في أوائل السور التي تتحدّث عن الوحي هي التهيئة والإشارة إلى مادة الوحي اللغوية.
- **ما أنزلنا عليكَ القرآنَ لِتَشْقى:** توضيح الغرض من القرآن، بادئة بنفي أنّ النتيجة الراهنة هي الغرض؛ فليس الغرض هو المشقة {لِتَشْقى} بل هو {تذكرة}، وهذا النفي في البداية قد يكون ردًا على ما يراه النبي من مشقة في الدعوة أو ما يراه الناس عليه.
- **إلّا تذكرةً لِمَنْ يخشى:** أسلوب قصر وحصر {إلا} يحدد وظيفة القرآن الأساسية: {تذكرة} (مذكِّر)، ولكن نفعها يخص {مَنْ يخشى} (من يخاف الله بعلم وتعظيم)، فليست الهداية للجميع رغم أن التذكرة للجميع.
- **تنزيلًا ممَّنْ خلَقَ الأرضَ والسماواتِ العُلى:** وصف لمصدر القرآن بأنه {تنزيل} (مُنزَّل) من الخالق المباشر للكون، من أدناه {الأرض} إلى أعلاه {السماواتِ العُلى}، تأكيدًا لعلو مصدره.
- **الرّحمنُ على العرشِ استوى:** {استوى} من (س و ي) تدل على التمام والاستقرار والسيطرة بعد الخلق. استواء {الرّحمنُ} على {العرشِ} (رمز الملك

والسلطان المطلق) هو تعبير عن تمام هيمنته وتدبيره للوجود.

- **لهُ ما في السماواتِ وما في الأرضِ وما بينَهُما وما تحتَ الثَّرى:** تأكيد للملكية الشاملة لله {لهُ}، من السماوات إلى الأرض، وحتى ما خفي في باطن الأرض {ما تحتَ الثَّرى}.
- **وإنْ تجهَرْ بالقولِ فإنّهُ يعلمُ السِّرَّ وأخفى:** بيان لإحاطة علم الله؛ فهو لا يعلم فقط ما يُجهر به، بل ما هو أعمق: {السِّرَّ} (ما يُكتم في النفس) بل وما هو {أخفى} منه.
- **اللهُ لا إلهَ إلا هوَ لهُ الأسماءُ الحُسنى:** تقرير التوحيد المطلق {لا إلهَ إلا هوَ}، وإثبات أنّ الأسماء الكثيرة لله ليست بسبب تعدّد الآلهة لكنه له من الصفات والأسماء أحسنها.
- **وهلْ أتاكَ حديثُ موسى:** استفهام للتشويق ولفت الانتباه إلى قصة موسى التي ستحمل العبر والتسلية.
- **إنّي آنسْتُ نارا لعلّي آتيكمْ منها بقبَسٍ أو أجِدُ على النارِ هُدى:** {آنَسْتُ} أي رأيت نارًا وقد كنت أبحث عنها من قبل. الهدف المزدوج: إما الحصول على

شـــعلة نار {قبَس}، أو الأهم، إيجاد {هُدى} أي مرشـــد للطريق.

- **إنّي أنـا ربُّك فـاخلعْ نعلَيْك إنّك بـالوادِ المقدَّسِ طُوًى:** النداء الإلهي المباشـــر وتعريف الذات {إنّي أنا ربُّك}، والأمر بخلع النعلين {فـاخلعْ نعلَيْـك} للتعظيم للمكـان المقدس {الوادِ المقدَّسِ طُوًى}. وهذا لأنّ النعلين منـاط النجاسـة بما يدوسـانه من أوسـاخ، وهذا لا يليق بقدسيّة المكان. وقد ورد في السـيرة أنّ الرسـول كان يصـلّي بنعليه إذا لم يصبهما نجاسة.
- **وأنـا اخترتُك فاســتمِعْ لِما يوحى:** إعلان الاصـــطفاء الإلهي {اخترتُك}، والأمر بالاسـتماع بإنصـات ووعي للوحي القادم وطاعته {فاستمِعْ لِما يوحى}.
- **إنّني أنـا اللهُ لا إلـهَ إلّا أنـا فاعبُدْني وأقِمِ الصلاةَ لِذِكْري:** جوهر الرســـالة: تأكيد الألوهية والوحدانية {لا إلهَ إلّا أنا}، والأمر بالعبادة الخالصـة {فاعبُدْني}، وتخصـيص الصلاة كصلة ووسيلة لذكر الله {وأقِمِ الصلاةَ لِذِكْري}.
- **إنّ السـاعـةَ آتيـةٌ أكـادُ أُخْفيهـا:** تـأكيد حتميـة وقوع السـاعة {آتيةٌ}، مع الإشـارة إلى أن وقتها يكاد يكون مخفيًـا {أكـادُ أُخْفيهـا}، لحكمـة إلهيـة هي {لِتُجْزى كـلُّ نفسٍ بما تسعى}.

- **فلا يصُدَّنَّك عنها مَنْ لا يؤمِنُ بها واتَّبعَ هواهُ فترْدى:** تحذير لموسى (ولكل مؤمن) من التأثر بمنكري الساعة وأهل الهوى {فلا يصُدَّنَّك}، لأن الانسياق وراءهم يؤدي للهلاك {فترْدى}.
- **وأهُشُّ بها على غنَمي ولِيَ فيها مآرِبُ أُخرى: {أَهُشُّ}** أي أضرب الشجر لتتساقط أوراقه للغنم. {مآرِبُ} أي حاجات ومنافع أخرى لا يليق تعدادها فيكتفى بالتعميم. جواب موسى يظهر بساطة العصا في نظره قبل تحولها لآية، ولأنّ موسى يعلم أنّ الله يعلم أنّه عصا، فهو وضّح سبب حملها، فهو ظنّ أنّ السؤال لهذا السبب.
- **سنُعيدُها سيرتَها الأولى:** الوعد الإلهي بإعادة العصا إلى حالتها الطبيعية {سيرتَها الأولى} ليزول خوف موسى.
- **واضمُمْ يدَك إلى جنَاحِك تخرُجْ بيضاءَ مِن غيرِ سوءٍ:** الآية الثانية: ضم اليد إلى الجنب {جنَاحِك} فتخرج بيضاء ناصعة {بيضاءَ} دون مرض أو برص {مِن غيرِ سوءٍ}.
- **ربِّ اشرَحْ لي صدري ويسِّرْ لي أمري واحلُلْ عُقدةً مِن لساني يفقَهوا قولي:** دعاء موسى الشامل الذي

يطلب فيه الانشـراح الداخلي {اشـرَحْ لي صـدري}، وتيسـير المهمة {يسِّـرْ لي أمري}، وإزالة عائق النطق {واحلُلْ عُقدةً مِن لسـاني} لغاية فهم قومه لكلامه {يفقَهوا قولي}، وهو مجزوم لأنه جواب الطلب.

- **واشـدُدْ بهِ أزْري وأشـرِكْهُ في أمري:** طلب الدعم والمسـاندة من أخيه هارون؛ ليقوي به ظهره {أزْري} وليكون شـريكًا له في أعباء الرسـالة {أمري}. وهو حسـب القصـة الإسـلاميّة لم يكن يعرف أنّ هارون شـقيقه حتّى ذلك الوقت، لكنّه يعرف أنّه أخوه بالرضـاعة كما سـيأتي فيما يلي ذلك من آيات، أو أنّ هذا الطلب كان في موضع آخر.
- **كيْ نُسـبِّحَك كثيرا ونذكُرَك كثيرا:** الغاية من طلب الشـراكة ليسـت دنيوية، بل ليتعاونا على الإكثار من التسبيح والذكر.
- **قد أوتيتَ سُؤْلَك يا موسى:** الاستجابة الإلهية الفورية والكاملة لجميع طلبات موسى {سُؤْلَك}.
- **ولقد منَنّا عليكَ مرَّةً أُخرى:** تذكير موسى بنعم سابقة {منَنّا... مرَّةً أُخرى} لتقوية قلبه.

- **أنِ اقذِفيهِ في التّابوتِ فاقذِفيهِ في اليَمِّ فليُلْقِهِ اليَمُّ بالسّاحِلِ:** سلسلة أوامر متتابعة بفاء التعقيب تكشف عن تدبير إلهي عجيب لحفظ موسى الرضيع.
- **ولِتُصنَعَ على عيني:** تعبير يدل على تمام الرعاية والحفظ الإلهي المباشر لموسى وهو يتربى في قصر عدوه.
- **فتَنّاك فُتونا:** أي اختبرناك اختبارات متنوعة وشديدة {فُتونا} لتهيئتك للرسالة.
- **جِئتَ على قدَرٍ يا موسى:** وصول موسى إلى الميقات كان بتدبير إلهي محكم في الموعد والصفات التي أنت عليها {على قدَرٍ}.
- **واصطنَعْتُك لِنفسي:** غاية الإعداد والتهيئة؛ أن الله اختاره واصطفاه لمهمة خاصة تتعلق بالله مباشرة {لِنفسي}، وهذا من المجاز، فكلمة نفس أطلقت على ذات الله مجازًا.
- **ولا تنِيا في ذِكْري:** {تنِيا} من الوني وهو الفتور. أمر لموسى وهارون بعدم الفتور في ذكر الله.

- **قولًا ليّنا لعلّهُ يتذكّرُ أو يخشى:** منهج الدعوة مع الطغاة: البدء بالقول اللين الرفيق {قولًا ليّنا}، والهدف هو التذكير أو إثارة الخشية {لعلّهُ...}.
- **أنْ يفرُطَ علينا أو أنْ يطْغى:** خوف موسى وهارون الطبيعي؛ {يفرُطَ} أي يعجل بالعقوبة، {يطْغى} أي أن يسيطر علينا.
- **إنّني معَكُما أسمعُ وأرى:** الطمأنة الإلهية المطلقة: معيّة الله الخاصة {معَكُما} التي تقتضي السمع والرؤية والنصرة.
- **والسّلامُ على مَنِ اتَّبعَ الهُدى:** تحية السلام والأمان مخصصة لمن يختار طريق الهداية.
- **أنَّ العذابَ على مَنْ كذَّبَ وتولّى:** تحديد واضح لسبب العذاب: التكذيب بالحق والإعراض عنه.
- **ربُّنا الذي أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثمَّ هدى:** تعريف موسى للرب: هو الذي أوجد كل شيء وأعطاه صورته ووظيفته {خَلْقَهُ}، ثم وجهه لما خُلق له {ثمَّ هدى}. لاحظ أنّ هذا جواب بالاكتفاء بما يجب أن تعرفه عن الله.

- **فما بالُ القُرونِ الأولى:** سؤال فرعون عن مصير الأجيال السابقة {القُرونِ الأولى} محاولة منه للتشكيك، إذ كيف ترك ربّك هؤلاء يموتون قبل أن يسمعوا رسالتك.
- **عِلمُها عندَ ربّي في كتابٍ لا يضِلُّ ربّي ولا ينسى:** جواب موسى: علم الأقوام السابقة عند الله {عندَ ربّي}، مسجل {في كتابٍ}، والله منزه عن الخطأ {لا يضِلُّ} والنسيان {ولا ينسى}.
- **فأخرجْنا بهِ أزواجًا مِن نباتٍ شتّى:** {أزواجًا} أي أصنافًا. {شتّى} أي مختلفة.
- **لِأُولي النُّهى:** {النُّهى} جمع نُهْية، وهي العقل الذي ينهى صاحبه عن القبيح.
- **تارةً أُخرى:** أي مرة أخرى عند البعث.
- **فكذَّبَ وأبى:** جمع بين التكذيب والاستكبار عن الاستماع.
- **إن هذان لساحران:** أي ليس هذان سوى ساحرين.
- **لتخرجنا من أرضنا:** أي لتنزع عنّا سلطاننا على أرضنا.

- **لا نُخلِفُهُ نحنُ ولا أنتَ مكانًا سُوًى:** {سُوًى} أي مكانًا لا يتغيّر، عادلًا لكلا الطرفين.
- **يومُ الزّينةِ وأنْ يُحشَرَ الناسُ ضُحًى:** اختيار موسى ليوم عيد {يومُ الزّينةِ} ووقت الضحى {ضُحًى} ليكون الاجتماع عامًا والحجة ظاهرة.
- **ويلَكُمْ لا تفتَروا على اللهِ كذِبًا فيُسحِتَكُمْ بعذابٍ:** {ويلَكُمْ} كلمة تحذير. {تفتَروا} أي تختلقوا الكذب. {فيُسحِتَكُمْ} أي فيستأصلكم.
- **وأسرُّوا النَّجوى:** أي تناجوا وتكلموا سرًا بطريقة لا يسمعها غيرهم.
- **ويذهَبا بطريقَتِكُمُ المُثلى:** أي يزيلا دينكم أو شريعتكم أو طريقة حياتكم الفضلى بزعمهم.
- **فأجمِعوا كيدَكُمْ ثمَّ ائْتوا صفّا:** أي أحكموا تدبيركم ووحدوا أمركم {أجمِعوا كيدَكُمْ}، ثم تقدموا مجتمعين {صفّا}.
- **وقد أفلَحَ اليومَ مَنِ استعلى:** الفلاح لمن تكون له الغلبة والعلو {مَنِ استعلى} اليوم.
- **يُخيَّلُ إليهِ مِن سِحرِهِمْ أنّها تسعى:** تأثير السحر كان تخييلًا {يُخيَّلُ} في نظر موسى، وليس تغييرًا حقيقيًا.

ومن المعروف أنّ الله يعصم نبيّه من تأثير السحر لو كان له أثر على النفس، لكنّ هذا مجرّد تخييل وخداع للحواسّ.

- **فأوجَسَ في نفسِهِ خيفةً موسى:** شعور طبيعي بالخوف {خيفة} داخل نفس موسى {أوجَسَ}.
- **تلْقَفْ ما صنَعوا:** {تلْقَفْ} أي تبتلع بسرعة وخفة ما صنعوه من سحر باطل.
- **إنّما صنَعوا كيدُ ساحرٍ ولا يُفلِحُ الساحرُ حيثُ أتى:** تقرير لحقيقة ما فعلوه بأنه مجرد {كيدُ ساحرٍ}، والحكم بأن {الساحرُ} مآله الفشل {لا يُفلِحُ} فهو ليس عملا حقيقيا له ثمرة كثمرة الفلاحة، وهذا أمر عامّ لكل ساحر {حيث أتى}.
- **ألقي السحرة سجّدًا قالوا آمنّا بربّ هارون وموسى:** تقدّم ذكر هارون لأنّه كان الذي يتولّى الخطابة، وكانت آيات موسى الإثبات اللاحق. والإلقاء هو الفعل السريع، والسجود هو الخضوع التامّ.
- **إنّهُ لكبيرُكُمُ الذي علَّمَكُمُ السِّحرَ:** اتهام فرعون الباطل للسحرة بأن موسى هو معلمهم ورئيسهم {لكبيرُكُمُ}.

- **مِنْ خِلافٍ:** أي بقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى أو العكس.
- **ولأُصَلِّبَنَّكُمْ في جذوعِ النَّخْلِ:** تهديد بالقتل بطريقة بشعة {لأُصَلِّبَنَّكُمْ} على جذوع النخل، وجاء حرف الجرّ (في) بدلا من (على) إمعانًا في التصاقهم بجذوع النخل وكأنّه سيدقّ أجسامهم بمسامير تصلهم بالجذع.
- **لنْ نُؤثِرَك على ما جاءَنا مِن البيّناتِ والذي فطَرَنا:** جواب السحرة المؤمنين القاطع: لن نفضل طاعتك {نُؤثِرَك} على الحق الواضح {البيّناتِ}، ولا على من خلقنا.
- **فاقضِ ما أنتَ قاضٍ إنّما تقضي هذهِ الحياةَ الدّنيا:** فافعل يا فرعون ما أنت فاعل، كلّ ما ستفعله حدوده الحياة الدنيا الزائلة.
- **واللهُ خيرٌ وأبقى:** المقارنة بين جزاء الله الباقي {خيرٌ وأبقى} وعقاب فرعون الفاني.
- **لا يموتُ فيها ولا يَحْيى:** وصف لحال المجرم في جهنم؛ حالة بين الموت والحياة، لا هو يعيش الحياة كما يحبّ ولا يموت فيرتاح.

- **جزاءُ مَنْ تزكّى:** هـذا هو جزاء من طهر نفســـه {تزكّى}.
- **طريقًا في البحرِ يبَسا:** طريقًا يابسًـا {يبَسـا} في وسـط الماء العظيم من نهر أو بحر.
- **لا تخافُ درَكًا ولا تخشـــى:** لا أنت تخاف أن يلحقك فرعون {درَك} ولا تخشى الغرق في البحر {تخشى}.
- **فغشِـيَهُمْ مِن اليَمِّ ما غشِـيَهُمْ:** تعبير للتهويل؛ غطاهم من الماء {اليَمّ} أمر عظيم لا يمكن وصفه {ما غشِيَهُمْ}.
- **واعـدنـاكم جـانـب الطور الأيمن ونزّلنـا عليكم المنّ والسـلوى:** الله ضـرب ميعادًا لبني إسـرائيل كافّة في مكـان محدّد هو جـانـب الطور الأيمن، بعد أن أنجـاهم من عدوّهم، وأنزل عليهم رزقا منًّا من عنده (المنّ هو الفضل) والسلوى وهي نعمة نسيان العذاب الذي كانوا فيه.
- **ولا تطْغَوْا فيـهِ فيحِـلَّ عليكمْ غضَـــبي:** الطغيـان في اســـتهلاك النعمة ومجاوزة الحد فيها ســـبب لحلول الغضب الإلهي {فيحِلَّ عليكمْ غضَبي}.
- **فقَدْ هوى:** أي هلك وسقط {هوى}.

- **وإنّي لغفّارٌ لِمَنْ تابَ وآمَنَ وعمِلَ صـــالِحا ثمَّ اهتدى:** شـــروط المغفرة الشـــاملة {لغفّارٌ}: التوبة، والإيمان، والعمل الصالح، والاستمرار على الهداية {ثمَّ اهتدى}.
- **وما أعجَلَكَ عن قومِكَ يا موسـى:** سـؤال الله لموسـى عن سبب استعجاله وتقدّمه على قومه رغم أنّ الميعاد كان لهم جميعًا.
- **هُمْ أولاءِ على أثَري:** أي هم قريبون خلفي يتبعونني {على أثَري}.
- **وعجِلْتُ إليكَ ربِّ لِترضى:** سبب استعجال موسى كان بسبب أنّه يريد إرضاء الله بإظهار شوقه للقائه.
- **قد فتَنّا قومَكَ مِنْ بعدِكَ وأضـلَّهُمُ السّـامِريُّ:** إخبار الله لموسى أنّه اختبر قومه وهو ليس فيهم، وأنّ السامريّ تمكّن من إضلالهم.
- **غضبانَ أسِفا:** حال موسى عند رجوعه: شديد الغضب {غضبانَ}، شديد الحزن والندم {أسِفا}.
- **أفطالَ عليكُمُ العهدُ أمْ أردْتُمْ أنْ يحِلَّ عليكمْ غضَـــبٌ؟:** توبيخ موسى لقومه: هل طال عليكم عهدي فنسيتموه، أم أنكم تعمدتم فعل ما يوجب غضب الله؟

- **ما أخلفْنا موعِدَكَ بمَلْكِنا:** أي لم نخلف وعدك عن قدرة منا أو اختيار {بمَلْكِنا}.
- **حُمِّلْنا أوزارًا مِنْ زينةِ القومِ فقذفْناها:** {أوزارًا} أي أحمالًا ثقيلة من حليّ قوم فرعون التي سرقوها، وقد يكون الوزر هنا معنويًّا أيضًا لأنّه مال مسروق. {فقذفْناها} أي ألقيناها في النار لصهرها.
- **فأخرَجَ لهُمْ عِجْلًا جسَدًا لهُ خُوارٌ:** صنع لهم السامري تمثال عجل {عِجْلًا} أحمر اللون {جسدًا وهو لون صبغ الزعفران} ولكنه يصدر صوتًا {خُوارٌ}.
- **هذا إلهُكُمْ وإلهُ موسى فنسِيَ:** قول السامري وقومه: هذا هو الإله الحقيقي لكم ولموسى، فنسي القوم عهدهم معك.
- **ألّا يرجِعُ إليهِمْ قولًا ولا يملِكُ لهُمْ ضرّا ولا نفعا:** الحجة على بطلان العجل: عجزه التام عن الرد أو النفع والضر.
- **لنْ نبرَحَ عليهِ عاكِفينَ:** إصرارهم على عبادة العجل {عاكِفينَ} حتى عودة موسى.

- **ما منَعَكَ إذْ رأيتَهُمْ ضـلّوا ألّا تتَّبِعَنِي؟:** عتاب موسـى لهارون: ما الذي منعك أن تتبعني وتلحق بي لتخبرني أو تتخذ موقفًا؟
- **يـا بنَؤُمَّ:** يـا ابن أمي! تلطف هـارون في مخـاطبـة موسـى، وأمّه هنا أولى الناس باسـتدرار العطف لأنّها هي التي رعتهما وكانت أمّ موسى رضاعًا كما يعلم.
- **لمْ ترقُـبْ قولي:** أي لم تنتظر أمري وتوجيهي، أو لم تتّبع أمري في الحفاظ على وحدة بني إسرائيل.
- **فما خطْبُكَ يا سـامِرِيُّ:** ما الذي تريده من فعلك هذا {خطْبُكَ} يا سامريّ.
- **بصُـرْتُ بما لم يبصُـروا بهِ فقبضْـتُ قبضـةً مِنْ أثَرِ الرّسـولِ فنبذْتُها:** {بصُـرْتُ} بصـر بالشـيء أي علمه وتنبّه له، وليس المقصـود الرؤية مثل (أبصـرته)، أي علمت ما لم يعلموه، فأخذت بعضًـا من {أثَرِ الرّسـولِ} أي طريقـة الرسـول ومـا تركـه من أثر في قومـه، وحاولت أن أقبضـها لتكون لي، وها أنـا قد تركتها وتبت {فنبذْتُها}.
- **وكذلك سـوَّلَتْ لي نفسـي:** برّرت لي نفسـي هذا الفعل {سوَّلَتْ}.

- **أن تقول لا مِســـاسَ:** أي تطلب من النّاس ألّا يخالطك أحد، وهي عقوبة دنيويّة بالعزل الاجتماعي التامّ الّذي يكون تنفيذه منوطًا بك أنت، وبعد ذلك سيكون لك لقاء لتحاسب على عملك.
- **الذي ظلت عليه عاكفًا:** أي بقيت عاكفا عليه، وهذا يعني أنّ السامريّ صدّق بألوهة العجل الذي صنعه.
- **لنُحرِّقَنَّهُ ثمَّ لننسِـــفَنَّهُ في اليَمِّ نسْـــفا:** التحريق هو تعريض الشـــيء للناس، وبما أنّه صـــنع من الزينة (جســـدًا: ذهبًا محمرًّا) فهو ســـيذوب، فإذا ذاب العجل ســـحقوه قطعًا "النســـف" وألقوه في الماء {اليَمّ} لإزالته التامة.
- **وسِعَ كلَّ شيءٍ عِلْما:** إحاطة علم الله بكل شيء.
- **مِنْ لدُنّا ذِكْرا:** أي أعطيناك من عندنا مباشـــرة {مِنْ لدُنّا} ذكرًا (هو القرآن) وتذكرة بأخبار السالفين.
- **مَنْ أعرَضَ عنـــهُ فـإنّـــهُ يحمِـلُ يومَ القيـامـــةِ وِزْرا:** الإعراض عن الذكر (القرآن) جزاؤه حمل عبء ثقيل {وِزْر} يوم القيامة.
- **وســـاءَ لـهُمْ يومَ القيامةِ حِمْلا:** بئس الحمل حملهم هذا {ساءَ... حِمْلا}.

- **ونَحشُـــرُ المُجرِمينَ يومَئذٍ زُرْقا:** {زُرْقا} قيل زُرْق العيون أي عميانًا، والأزرق في اللغة القديمة يعني اللون الرماديّ، فيجوز أن يكون المعنى زرق الوجوه أيضًا، كأنّهم مختنقون.
- **يتخافَتونَ بينَهُمْ إنْ لبِثْتُمْ إلا عشْـــرا:** يتهامســـون {يتخافَتونَ} حول ضآلة مدة لبثهم في القبر في نظرهم لهول الموقف.
- **أمثَلُهُمْ طريقةً:** أحسنهم رأيًا وأصوبهم تقديرًا، ورأيه أنّ إقامتهم لم تتجاوز اليوم الواحد، وقد مرّ معنا أنّ القيامة تقوم للميّت بمجرّد موته. واليوم هو الطور أيضًا.
- **ويسألونك عن الجبال:** كان المشركون يسألون عن مصـــير الأشـــياء العظيمة كالجبال إذا قامت القيامة، بغرض إظهار استحالة أن تزول الدنيا.
- **ينسِفُها ربّي نسْفا:** يزيلها ويزرّيها كالتراب {ينسِفُها}.
- **قاعًا صفْصفا:** أرضًا مستوية ملساء {قاعًا صفْصفا}.
- **لا تَرى فيها عِوَجًا ولا أمْتا:** أي لا ترى فيها ارتفاعًا أو انخفاضًا. استواء تام.

- **يومَئذٍ يتَّبِعونَ الدّاعيَ لا عِوَجَ لهُ:** يتبعون نداء الداعي للحشر الذي ليس من ندائه الذي لا يكذب.
- **وخشَـعَتِ الأصـواتُ للرّحمنِ فلا تسـمَعُ إلا همْسـا:** خضـعت وسكنت الأصـوات {خشَـعَتِ} هيبةً للرحمن، فلا يُسمع إلا صوت خافت جدًا {همْسا}.
- **ورضِـيَ لهُ قولًا:** أي لا يمكن أن يطلب أحد شـفاعة خارج ما يريده الله، ويرضى به.
- **يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يُحيطونَ بهِ عِلْما:** أي يعلم مستقبلهم وماضيهم، وهم لا يحيطون بشأن الله علمًا، فهم يعلمون منه شـيئا مثل أوامره ونواهيه وآياته، لكن لا يعلمون كل شيء عنه.
- **وعنَتِ الوجوهُ للحيّ القيّومِ:** {عنَتِ} أي قصـدت إلى الله {الحيّ} دائم الحياة {القيّومِ} القائم على شؤون خلقه.
- **وقد خابَ مَنْ حمَلَ ظُلْما:** خسـر وهلك {خابَ} من أتى يوم القيامة وهو مثقل بالشرك والظلم {حمَلَ ظُلْما}.
- **فلا يخافُ ظُلْمًا ولا هضْما:** المؤمن العامل للصالحات يأمن يوم القيامة؛ فلا هو يقع ضـحيّة ظلم تحجب عنه أجره كلّه، ولا يقع ضحيّة إنقاص من أجره (هضما).

- **وكذلك أنزلناه قرآنًا عربيًّا:** أي قرآنا بلسان العرب، والعرب في الأصل تسمية للأقوام الرحّل الذين شاع لسانهم بين الناس بسبب التجارة والتنقّل، فهو مفهوم لجميع أهل المنطقة. وكذلك فإنّ عربيًّا قد تعني أنّه ينقل المعنى بكفاءة فهذا من معاني اسم العرب.
- **وصَرَّفْنا فيهِ مِن الوَعيدِ:** نوّعنا وبيّنا فيه أنواع التهديد والعقوبات {صَرَّفْنا... مِن الوَعيدِ}.
- **أو يُحدِثُ لهُمْ ذِكْرا:** أو يخلق في وعيهم تذكّرًا.
- **ولا تعجَلْ بالقُرآنِ مِنْ قبلِ أنْ يُقضى إليكَ وحيُهُ:** لا تتعجّل نزول القرآن بأن تطلبه قبل أن يجيء موعد وحيه (يقضى إليك وحيه)، وقد فهم بعض المفسّرين أنّها بمعنى أن ينقضي عنك وحيه، وهذا ليس مقتضى منطوق الآية.
- **وقُلْ ربِّ زِدْني عِلْما:** أمّا الطلب المسموح للوحي هو أن يستزيد الرسول من علم الله.
- **عَهِدْنا إلى آدَمَ مِنْ قبلُ فنسِيَ ولم نجِدْ لهُ عزْما:** أوكلنا مهمّة لأبيك آدم، أو للإنسان بعمومه (والسورة تذكر فيما بعد آدم بشخصه)، فلم يلتزم {فنسِيَ}، ولم نجد له قوة التزام {عزْما}. وصلة هذا بما قبله أنّ الله يخبر الرسول أنّه معرّض للنسيان والخطأ، وأنّ عليه أن

يحـاول الالتزام بـأوامر الله فلا يكون ممّن ليس لهم عزم. ثم يأتي تبيان نسيان آدم لهذا العهد والمهمّة.

- **إلّا إبليسَ أبى:** امتنع {أبى} عن السجود تكبرًا وعنادًا.
- **فلا يُخرِجَنَّكُما مِن الجنّةِ فتشْـقى:** تحذير لآدم وزوجه من إغواء إبليس الذي سـيؤدي لخروجهما من الجنة وبالتالي الوقوع في التعب والمشقة {فتشْقى}.
- **لا تظْمَأُ فيها ولا تضْحى:** {تظْمَأُ} أي تعطش. {تضْحى} أي تصيبك حرارة الشمس.
- **شجرَةِ الخُلْدِ ومُلْكٍ لا يبْلى:** إغواء إبليس لآدم؛ الشجرة التي تمنح الخلود {الخُلْد} والملك الدائم الذي لا يفنى {لا يبْلى}.
- **فبدَتْ لهُما سـوءَاتُهُما:** انكشـفت لهما عوراتهما أو مواضع ضعفهما {سوءَاتُهُما}.
- **وطفِقا يخصِـفانِ عليهِما مِنْ ورَقِ الجنّةِ:** شـرعا يأخذان من ورق الجنة ويلصـقانه {يخصِـفانِ} على أجسادهما لستر ما انكشف.
- **وعصـى آدَمُ ربَّهُ فغَوى:** {عصـى} آدم الأمر. {فغَوى} أي ضل عن طريق الرشد نتيجة المعصية.

- **ثمَّ اجتباهُ ربُّهُ فتابَ عليهِ وهدى:** {اجتباهُ} أي اختاره وقرّبه. {فتابَ عليهِ} أي قَبِل منه توبته. {وهدى} أي أرشده مرة أخرى.
- **فمَنِ اتَّبعَ هُدايَ فلا يضِلُّ ولا يشقى:** سنة الله بعد الهبوط: من اتبع هدى الله (الوحي) فلا يقع في الضلال {فلا يضِلُّ} ولا في الشقاء والعذاب {ولا يشقى}.
- **معيشةً ضنْكا:** {ضنْك} أي ضيقة شديدة مليئة بالهم والكدر.
- **ونَحشُرُهُ يومَ القيامةِ أعمى:** جزاء الإعراض عن الذكر هو العمى يوم القيامة، عمى البصيرة قد يتحول لعمى حسي.
- **أتتْكَ آياتُنا فنسيتَها وكذلِكَ اليومَ تُنْسى:** الجزاء من جنس العمل: كما تركت آياتنا {فنسيتَها}، فكذلك تُترك في العذاب {تُنْسى}.
- **مَنْ أسْرَفَ ولم يؤمِنْ:** الإسراف هو تجاوز الحدود المحمودة {أسْرَفَ}، مع عدم الإيمان {ولم يؤمِنْ}.
- **أفلمْ يهدِ لهُمْ كمْ أهلكْنا قبلَهُمْ مِن القُرونِ يمشونَ في مساكِنِهِمْ:** ألم يتبين لهؤلاء المكذبين من مصارع الأمم

السابقة، على كثرتها، التي يمرون على ديارهم {يمشونَ في مساكِنِهِمْ} ما يرشدهم؟

- **ولولا كلمة... لكانَ لِزاما وأجَلٌ مُسَمًّى:** لولا كلمة الفصل بتأخير العذاب {كلمةٌ سبَقَتْ} وأجل محدد لكل أمة {وأجَلٌ مُسَمًّى}، والأجل أعمّ من المدّة الوقتيّة فقد يكون متعلّقًا بحدث، لكان العذاب واقعًا عليهم لازمًا {لِزاما}.
- **وسبّحْ بحمدِ ربِّكَ قبلَ طلوعِ الشّمسِ وقبلَ غُروبِها ومِنْ آناءِ اللّيلِ فسبّحْ وأطرافَ النّهارِ لعلّكَ ترضى:** أوقات التسبيح والحمد المأمور بها تشمل طرفي النهار، وساعات الليل {آناءِ اللّيلِ}، وأول النهار وآخره {أطرافَ النّهارِ}. والغاية هي الوصول لمرتبة الرضا النفسي {لعلّكَ ترضى}.
- **ولا تمُدَّنَّ عينَيكَ إلى ما متَّعْنا بهِ أزواجًا منهُمْ زهرةَ الحياةِ الدّنيا لنفتِنَهُمْ فيهِ:** نهي للنبي (وللمؤمنين) عن التطلع بإعجاب أو حسد {ولا تمُدَّنَّ عينَيكَ} إلى متاع الدنيا الزائل {زهرةَ الحياةِ الدّنيا} الذي أوتي غيرك من الناس لا سيّما من تراه أقلّ صلاحًا منك (فالحديث هنا عن الكافرين)، فهو فتنة واختبار لهم {لنفتِنَهُمْ}.

- **ورِزقُ ربِّكَ خيرٌ وأبقى:** ما عند الله من رزق معنوي أو مادي في الآخرة هو أفضل وأدوم.
- **واؤمُرْ أهلَكَ بالصلاةِ واصطَبِرْ عليها:** الأمر بمتابعة الأهل وحثهم على الصلاة، مع الصبر والمصابرة {واصطَبِرْ} على ذلك.
- **لا نسألُكَ رِزقا نحنُ نرزُقُكَ:** لا نكلفك رزق نفسك أو أهلك، فالرزق مكفول من الله {نحنُ نرزُقُكَ}.
- **والعاقِبةُ للتّقوى:** النهاية الحسنة هي لأهل التقوى {للتّقوى}.
- **أولَمْ تأتِهِمْ بيّنةُ ما في الصُّحُفِ الأولى:** الرد على مطالبتهم بآية بأن القرآن وما فيه من أخبار الأولين الموافق لما في كتبهم {بيّنةُ ما في الصُّحُفِ الأولى} هو أعظم بينة، أي البيّنات الأخرى التي ذكرت في الصحف الأولى.
- **لقالوا ربَّنا لولا أرسلْتَ إلينا رسولًا... مِنْ قبلِ أنْ نذِلَّ ونخزى:** لو أهلكناهم قبل إرسال الرسول لكانت لهم حجة يوم القيامة بأنهم لم يُنذَروا.
- **قُلْ كلٌّ مُتربِّصٌ فتربَّصوا فستعلَمونَ مَنْ أصحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ ومَنِ اهتدى:** إعلان موقف الانتظار

والتربص للنتيجة النهائية {كلٌّ مُتربِّصٌ}. فسيظهر في النهاية من هم أهل الطريق المستقيم {أصحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ} ومن هم أهل الهداية.

مقالة السورة (طه)

بداية الأحرف المتعلّقة التي استقرّ أنّها تأتي قبل ذكر القرآن بصفتها تذكيرا بمادّة الوحي {طه}. ما أنزلنا عليك هذا القرآن لتشقى به أو تتعب في سبيل تبليغه، بل أنزلناه ليكون {تذكرةً لِمَنْ يخشى}، أي موعظة يتلقاها وينتفع بها من كان في قلبه خشية من الله. وهذا القرآن أتى {تنزيلًا ممَّنْ خلَقَ الأرضَ والسماواتِ العُلى}، فهو كلام الخالق العظيم، {الرّحمنُ} الذي {على العرشِ استوى}، تأكيدًا لتمام هيمنته وملكه وسلطانه. {لهُ} وحده {ما في السماواتِ وما في الأرضِ وما بينَهُما وما تحتَ الثَّرى}، لا يشاركه في ملكه أحد. ورغم علوّه وعظمته، فهو محيط بعلمه بكل شيء، {وإنْ تجهَرْ بالقولِ فإنّهُ يعلمُ السِّرَّ وأخفى} منه. هو {اللهُ لا إلهَ إلا هوَ}، المتفرّد بالألوهية، وله الكمال المطلق المتجلّي في صفاته {الأسماءُ الحُسنى}.

ثم تنتقل السورة لتسلية النبي وتثبيته بعرض خبر مستطرد من أخبار موسى: {وهلْ أتاكَ حديثُ موسى}؟ تبدأ القصة حين رأى موسى نارًا وهو في طريقه بأهله، فأنس بها {آنَسْتُ نارا}، ورجا أن يأتيهم منها بشعلة {قبَس} أو يجد

عندها هداية للطريق {هُدى}. فلما أتاها، نودي نداءً إلهيًا مباشـــرًا: {يا موســـى إنّي أنا ربُّك}، وأُمر بتعظيم المكان المقدس {فاخلعْ نعلَيْك إنّك بالوادِ المقدَّسِ طُوًى}. ثم جاء الاصطفاء الإلهي {وأنا اخترتُك} مع الأمر بالاستماع للوحي {فاســتمِعْ لِما يوحى}. وكان جوهر الوحي هو تقرير التوحيد {إنّني أنا اللهُ لا إلهَ إلّا أنا} والأمر بالعبادة وإقامة الصـــلاة لذكر الله {فاعبُدْني وأقِمِ الصـــلاةَ لِذِكْري}. وأُخبر موســـى بحقيقة الساعة وأنها آتية لا ريب فيها، وأن وقتها مخفي {أكادُ أُخْفيها} ليُجزى كل إنســان بعمله، مع تحذيره من الانســياق وراء منكريها وأهل الهوى {فلا يصُدَّنَّك عنها... فتَرْدى}.

ولإظهار صدق نبوته، سأله الله عن عصاه، فأجاب موسى بأنها عصـــا عادية يســـتخدمها للتوكؤ وهشّ غنمه وله فيها منافع أخرى {مآرِبُ أُخرى}. فأمره الله بإلقائها، فإذا هي تتحول إلى حية تســعى، فأمره الله بأخذها دون خوف ووعده بإعادتها لحالتها الأولى {ســيرتَها الأولى}. ثم أراه آية أخرى وهي يده التي تخرج بيضـــاء منيرة دون مرض {مِن غيرِ ســوءٍ}. وكانت الغاية من هاتين الآيتين الكبريين أن يريه الله من دلائل قدرته ما يثبت به قلبه ويقيم به الحجة.

بعد هذا الإعداد والتأييد، جاء التكليف الصــريح: {اذهَبْ إلى فرعونَ إنّهُ طغى}. فشعر موسى بثقل المسؤولية، ودعا ربه دعاءً شــاملاً يطلب فيه انشــراح الصــدر وتيســير الأمر

وفصاحة اللسان {ربِّ اشرَحْ لي صدري... واحلُلْ عُقدةً مِن لساني يفقَهوا قولي}، وطلب مؤازرة أخيه (أي نظيره، أو أخيه بالرضاعة حسبما يعلم في ذلك الحين) هارون ليكون له وزيرًا ومعينًا يقوي ظهره {اشدُدْ بهِ أزْري} وشريكًا في الرسالة {وأشرِكْهُ في أمري}، وحدد الغاية من هذه الشراكة وهي الإكثار من تسبيح الله وذكره {كيْ نُسبّحَك كثيرا ونذكُرَك كثيرا}، معللًا طلبه بأن الله بصير بحاله وحاجته للدعم. فجاءت الاستجابة الإلهية الكاملة: {قد أوتيتَ سُؤْلَك يا موسى}.

ثم ذكّره الله بمننه السابقة عليه منذ ولادته: كيف أوحى لأمه أن تضعه في التابوت وتقذفه في النهر، وكيف قذفه النهر إلى الساحل ليأخذه فرعون، عدو الله وعدو موسى، وكيف ألقى الله عليه محبة منه ليُقبل ويُربّى في قصر عدوه برعاية إلهية مباشرة {ولِتُصنَعَ على عيني}. وذكر مرور أخته وعرضها إحضار مرضعة (وهي أمه) ليعود إليها فتقرّ عينها، ثم ذكر قتله للنفس ونجاته من الغمّ بفضل الله، والاختبارات المتعددة التي مر بها {وفتَنّاك فُتونا}، وإقامته سنين في مدين، ثم مجيئه للميقات في الصفة المقدرة له {جِئتَ على قدَرٍ}. كل هذا الإعداد بهذه الأحداث كان لغاية عظيمة: {واصطنَعْتُك لِنفسي}.

بعد هذا التذكير، تجدد الأمر لموسى وهارون بالذهاب إلى فرعون بالآيات، مع عدم الفتور في ذكر الله {ولا تنِيا في ذِكْري}، وأُمرَا بأن يخاطباه باللين والرفق {قولًا ليّنا} رجاء أن يتذكر أو يخشى. عبّر موسى وهارون عن خوفهما البشري من بطش فرعون {أنْ يفرُطَ علينا أو أنْ يطْغى}، فأتتهما الطمأنة الإلهية الحاسمة بالمعية الإلهية الخاصة التي تقتضي السمع والرؤية والنصرة {إنّني معَكُما أسمعُ وأرى}.

فأتيا فرعون وأبلغا الرسالة: {إنّا رسولا ربِّك}، وطلبا منه إرسال بني إسرائيل أي تركهم، وقدّما الآيات من الله كدليل، وأعلنا أن السلام والأمان لمن اتبع الهدى، وأن العذاب على من كذب وتولى. سأل فرعون باستنكار عن ربهما، فأجابه موسى بتعريف شامل للرب حسب أفعاله في الكون: {ربُّنا الذي أعطى كلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثمَّ هدى}. حاول فرعون التشويش بالسؤال عن الأجيال السابقة التي جهلته ولم توصل خبره لهم {فما بالُ القُرونِ الأولى}، فأحال موسى علمهم إلى الله الذي لا يضل ولا ينسى وعلمه مسجل في كتاب. وواصل موسى التعريف بربه من خلال آياته في الأرض: جعلها ممهدة {مهْدا}، وشق فيها الطرق {سُبُلا}، وأنزل المطر فأخرج به أصنافًا شتى من النبات، ليعيش الناس ويرعوا أنعامهم، مؤكدًا أن في ذلك آيات لأصحاب العقول {لِأُولي النُّهى}. وذكّر بحقيقة الخلق من الأرض والعودة إليها ثم الخروج

منهـا مرة أخرى للبعـث. لكن فرعون، رغم رؤيتـه لكـل الآيات، {كذَّبَ وأبى}.

اتهم فرعون موســـى بـالســـحر والرغبـة في إخراجهم من أرضـــهم (ســلطانهم)، وتحدّاهما أن يأتي لهما بســحر مثله، وحدّدوا موعدًا للمواجهة في مكان معروف {مكانًا سُـــوًى}. اختار موسى {يومُ الزّينةِ} (يوم عيد) ووقت {ضُحًى} ليجتمع النـاس وتشـــهد الحجـة. جمع فرعون كيده وتدبيره وجـاء للموعد. حذر موســى الســحرة من الافتراء على الله بالكذب لئلا يهلكهم بعذاب شـــامل {فيُســـحِتَكُمْ} وهو تهديد بنقص الثمرات تحديدًا، فتنازع السحرة أمرهم سرًا، واتفقوا (أو قال الملأ منهم) على أن موســى وهارون ســاحران يريدان إزالة طريقتهم المثلى والاســـتيلاء على الحكم، فقرروا أن يوحدوا كيدهم ويـأتوا صـــفًـا واحدًا، فـالفلاح اليوم لمن يَغلِـب {مَنِ استعلى}.

خيّروا موسى بين أن يبدأ هو أو يبدأوا هم، فقال موسى: {بلْ ألْقوا}. فألقوا حبالهم وعصيهم، فخُيّل لموسى من مهارتهم في التحايل على الحواسّ أنها حيات تســـعى {يُخيَّلُ إليهِ... أنّها تسـعى}. فشـعر موسـى بخوف في نفسـه {فأوجَسَ في نفسِـهِ خيفةً}، فجـاءه التثبيت الإلهي: {لا تخَفْ إنّكَ أنتَ الأعلى}. وأُمر بإلقاء عصـاه التي ابتلعت بسرعة كل ما صنعوه {تلْقَفْ ما صنَعوا}، وكشف الله حقيقة فعلهم بأنه مجرد {كيدُ ساحرٍ}

لا يفلح صـــاحبه أبدًا. فلما رأى الســـحرة هذه الآية القاهرة، خرّوا ساجدين معلنين إيمانهم برب هارون وموسى.

جن جنون فرعون فـاتهمهم بـالتواطؤ مع موســـى وأنـه هو كبيرهم الذي علمهم الســـحر، وهددهم بأبشـــع أنواع العقاب: تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف والصـــلب على جذوع النخل. فرد السـحرة بثبات عجيب: {لَنْ نُؤثِرَك على ما جاءَنا مِن البيّناتِ والذي فطَرَنا فاقضِ ما أنتَ قاضٍ إنّما تقضي هذهِ الحياةَ الدّنيا}، معلنين إيمانهم بالله طمعًا في مغفرة خطاياهم وما أُكرهوا عليه من الســـحر، مؤكدين أن ما عند الله {خيرٌ وأبقى}. وقرروا مبدأ الجزاء الأخروي: فالمجرم له جهنم في حالة لا موت فيها ولا حياة، والمؤمن الصـــالح له الدرجات العلى وجنات عدن خالدًا فيها، فذلك جزاء من طهر نفســـه {تزكّى}.

وتقفز السـورة إلى حدث مسـتقبليّ في قصّـته، إذ يأتي الأمر الإلهي لموسـى بالإسـراء بعباده ليلًا، وأن يضـرب لهم طريقًا يابسًـــا في النهر، مع الطمأنة من لحاق فرعون أو الغرق {لا تخافُ درَكًا ولا تخشـى}. فتبعهم فرعون بجنوده، فغطاهم من مـاء اليم مـا لا يمكن وصـــفـه لهولـه {فغشِـــيَهُمْ مِن اليَمِّ مـا غشِـــيَهُمْ}. وتخلص الآيـة إلى أن فرعون أضـــل قومـه ولم يهدهم.

بعد النجاة وهلاك العدو، يخاطب الله بني إسرائيل مذكرًا إياهم بنجاتهم، ومواعدته لموسى (ولهم تبعًا) بجانب الطور الأيمن، وإنزال الرزق الذي يمنّه الله عليهم (المن) والتسرية النفسيّة (السلوى)، ويأمرهم بالأكل من الطيبات دون تجاوز للحد {ولا تطْغَوْا فيهِ} لئلا يحل عليهم غضبه، فمن يحلل عليه غضب الله فقد هلك {فقَدْ هوى}. ويفتح باب الأمل ببيان سعة مغفرته لمن استكمل شروطها: التوبة والإيمان والعمل الصالح ثم الاستمرار على الهدى.

ثم تسرد السورة ما حدث في عند ذهاب موسى للميقات، فيعاتبه الله على استعجاله عن قومه، فيجيب موسى بأنهم على أثره وأن عجلته كانت طلبًا لرضا الله. فيخبره الله بأن قومه قد فُتنوا من بعده وأن السامري أضلهم. فرجع موسى إلى قومه غاضبًا حزينًا {غضبانَ أسِفا}، موبخًا إياهم على نسيان وعد الله الحسن ومخالفة موعده. اعتذروا بأنهم لم يخلفوا الموعد عن اختيار منهم {بمَلْكِنا}، بل بتأثير ما حملوه من حلي قوم فرعون التي ألقوها (للتخلص منها أو لصهرها)، وأن السامري استغل ذلك فأخرج لهم تمثال عجل له صوت {خُوارٌ}، وقال لهم هذا إلهكم وإله موسى! فنسي القوم عهدهم، وينكر القرآن عليهم عدم رؤيتهم لعجز هذا العجل عن الرد أو النفع والضر. ويذكر أن هارون قد نهاهم من قبل وحذرهم من الفتنة، لكنهم أصروا على العكوف على

العجل حتى عودة موسى. ثم يصور عتاب موسى الشديد لأخيه هارون على عدم اتخاذه موقفًا أشد أو اللحاق به، ودفاع هارون بأنه خشي الفرقة بينهم وانتظر أمر موسى. ثم يواجه موسى السامري، فيعترف السامري بأنه رأى أو علم {بصُرْتُ} ما لم يعلموه، وأنه تمسّك {قبضت قبضة} بشيء من أثر الرسول (تعاليمه) فتركه {فنبذْتُها}، وأن نفسه زيّنت له ذلك معلنا توبته. فحكم عليه موسى بعقوبة العزل الاجتماعيّ {لا مِساسَ} الذي سيفرضها على نفسه، وتوعّده بموعد للحساب لن يخلفه، وأمره بالنظر إلى إلهه العجل الذي سيُحرق ويُنسف في الماء بحرًا أو نهرًا. ويختم الموقف بإعلان التوحيد الخالص وأن علم الله وسع كل شيء.

وتعقب السورة بأن هذه القصص هي من أنباء ما سبق يقصها الله على النبي، وأن القرآن الذي أوتيه هو {ذِكْر} من عند الله مباشرة، وأن الإعراض عنه جزاؤه حمل الوزر يوم القيامة والخلود فيه. ثم تصف أهوال يوم القيامة: النفخ في الصور، حشر المجرمين زرق الوجوه أو العيون (العمى)، تهامسهم حول قصر مدة لبثهم في الدنيا لهول الموقف، حتى أن أصوبهم رأيًا يظنها يومًا واحدًا (وهو طور واحد فعلا "الموت"). وتجيب على سؤال المشركين المستغرب من مصير أشياء عظيمة يوم القيامة، أي عن مصير الجبال، والإجابة تكون بأن الله سينسفها نسفًا ويجعل الأرض قاعًا

مستويًا تمامًا {قاعًا صفْصفا لا تَرى فيها عِوَجًا ولا أمْتا}. في ذلك اليوم يتبع الناس الداعي للحشر دون تردد، وتخشع الأصوات للرحمن فلا يُسمع إلا همسًا، ولا تنفع الشفاعة إلا بإذن الرحمن ورضاه كناية عن الهيمنة والسلطان. ويؤكد علم الله بماضي الخلق ومستقبلهم، وقصور علمهم عن الإحاطة به. وتتجه الوجوه كلها للحي القيوم منتظرة قوله، ويخيب من حمل الظلم، بينما المؤمن الصالح لا يخاف ظلمًا ولا هضمًا لأدنى حقوقه.

وتؤكد السورة مجددًا أن القرآن أُنزل عربيًا ونُوّعت فيه أساليب الوعيد رجاء التقوى أو التذكر. وتعظّم الله الملك الحق، وتنهى النبي عن التعجل بالقرآن قبل أن يقدّر أنّ موعد وحيه حان، وتأمره بطلب الزيادة في العلم وهي الطريقة المشروعة لطلب الوحي. وتعود لقصة آدم لتذكير النبي والإنسان بأن النسيان وعدم العزم من طبيعة البشر، وأن أساس عداوة إبليس هو الكبر والرفض لأمر الله، وأن سبب الشقاء هو الخروج من الجنة نتيجة إغواء الشيطان الذي استغل رغبة الإنسان في الخلد والملك. وتؤكد أن طريق النجاة من الضلال والشقاء هو اتباع هدى الله الذي يأتي عبر رسله وكتبه. أما من أعرض عن ذكر الله فله معيشة ضيقة وعمى في الآخرة، وجزاؤه الترك في العذاب كما ترك آيات ربه. وتكرر أن هذا جزاء من أسرف ولم يؤمن.

وتختم السورة بالدعوة للاعتبار بمصائر الأمم السابقة التي يمرون على مساكنها، وتوضح أن تأخير العذاب هو بكلمة وأجل مسمى من الله، وتجدد الأمر للنبي بالصبر، والاستعانة بالتسبيح والحمد في أوقات معينة للوصول إلى الرضا النفسي، والزهد في متاع الدنيا الفاني الذي هو فتنة، والتركيز على أمر الأهل بالصلاة والاصطبار عليها فالله هو الرازق والعاقبة للتقوى. وترد على مطالبتهم المستمرة بآية بأن ما في القرآن والصحف الأولى هو أعظم بينة، وأن إرسال الرسول هو لقطع حجتهم يوم القيامة. وتختم بإعلان موقف الترقب والانتظار ليرى الجميع من هم أهل الصراط السوي والهداية الحقة.

المعنى الشمولي (طه)

تأتي سورة طه رسالة تسلية وتثبيت للنبي محمد صلى الله عليه وسلم في مواجهة مشقة الدعوة وتكذيب المعاندين، فتفتتح بنفي كون القرآن سببًا للشقاء {ما أنزلنا عليكَ القرآنَ لِتَشْقى}، بل هو {تذكرةً لِمَنْ يخشى}. وتتجلى هذه التذكرة والمواساة بشكل رئيسي من خلال القصة المفصلة لموسى عليه السلام، التي تستغرق الجزء الأكبر من السورة لتقدم نموذجًا للنبي في كيفية التعامل مع الرسالة وتحدياتها. ففي قصة موسى دروس في الاصطفاء الإلهي {وأنا اخترتُك}، وتلقي الوحي {فاستمِعْ لِما يوحى}، والحاجة للدعم في الدعوة

{وأشـــرِكْهُ في أمري}، ومنهج مواجهة الطغاة باللين والحجة {قولًا ليّنا}، والثبات أمام التهديد كما ثبت الســحرة، والتعامل مع فتنة القوم وانحرافهم كما في قصة العجل.

وتربط السورة بوضوح بين تجربة موسى وما يمر به النبي محمد؛ فكما أن موسى استشعر ثقل المهمة ودعا بانشراح الصدر وتيسير الأمر {ربِّ اشرَحْ لي صدري ويسِّرْ لي أمري}، فإن الله يطمئن نبيه محمد بأن القرآن ليس لشـــقائه. وكما أن موسى استعجل للقاء ربه بنيّة حسنة {وعجِلْتُ إليكَ ربِّ لِترضـــى}، وكان لذلك أثر في فتنة قومه، فإن الله يوجه نبيه محمدًا ألا يتعجل بالقرآن قبل أوانه {ولا تعجَلْ بالقُرآنِ مِنْ قبلِ أنْ يُقضـــى إليكَ وحيُهُ}، وأن يطلب الزيادة في العلم بدلًا من استعجال النتيجة.

تتخلل السرد القصصي تأكيدات على عظمة الله ووحدانيته وعلمه المحيط وقدرته المطلقة، وتستدعي قصة آدم لتذكير الإنسان بأصل ضعفه وقابليته للنسيان والغواية {فنسِيَ ولم نجِدْ لهُ عزْما}، ولكن أيضًا بسعة رحمة الله وقبوله للتوبة {ثمَّ اجتباهُ ربُّهُ فتابَ عليهِ وهدى}، ليظل اتباع هدى الله هو السبيل الوحيد للنجاة من الضلال والشقاء {فمَنِ اتَّبعَ هُدايَ فلا يضِلُّ ولا يشقى}.

تحذر السورة من عواقب الإعراض عن ذكر الله {ومَنْ أعرَضَ عن ذِكري فإنَّ لهُ معيشةً ضنْكا ونَحشُرُهُ يومَ القيامةِ أعمى}، وتقدم مشاهد حاسمة من يوم القيامة تؤكد على فناء الدنيا وزوال الجبال وخضوع الخلائق للحي القيوم، وفصل الجزاء العادل الذي لا ظلم فيه ولا هضم.

وفي الختام، تعود السورة لتوجيه النبي إلى الصبر، والاستعانة بالتسبيح والذكر في الأوقات المختلفة كوسيلة للوصول إلى الرضا النفسي والطمأنينة {لعلّكَ ترضى}، والزهد في متاع الدنيا الفاني، والتركيز على الصلاة والأهل، فالله هو الرازق والعاقبة للتقوى. وتؤكد أن القرآن هو البينة الكافية، وأن النتيجة النهائية للصراع بين الحق والباطل ستظهر حتمًا {فستعلَمونَ مَنْ أصحابُ الصِّراطِ السَّوِيِّ ومَنِ اهتدى}. فالسورة بمجملها، عبر تداخل قصص الأنبياء مع التوجيه المباشر، تقدم منهجًا متكاملًا للدعوة والصبر واليقين، أساسه الثقة بالله والتوكل عليه والالتزام بذكره وهداه.

مقالات القرآن العظيم 42 | سورة الواقعة

تأتي سورة "الواقعة" (قرابة السادسة والأربعين في ترتيب النزول التقريبي)، بعد سورٍ كـ "طه" و "مريم" التي عرضت جوانب من رحمة الله وقصص الأنبياء ومنهج الدعوة، لتركز بشكل مباشر وحاسم على الحدث الأكبر الذي يمثل نقطة الخلاف الجوهرية مع منكري الرسالة في مكة، وهو القيامة وما يتبعها من حساب وجزاء. تُعرف السورة باسمها {ٱلۡوَاقِعَةُ} الذي يفتتحها، وهو اسم يحمل في طياته ثقل الحقيقة المحتومة التي لا مفر منها ولا تكذيب لوقعتها.

وسياق نزول السورة هو السخرية الحادّة من مشركي مكّة حول القيامة، واستنكارهم الشديد لفكرة يوم القيامة، وتعريضهم بالآيات السابقة المنبئة بزوال الجبال وغيرها، فالسورة تتمحور حول فكرة القيامة.

تتميز السورة ببنيتها الواضحة والمتقابلة، حيث تبدأ بوصف أهوال بداية القيامة وانقلاب الكون {إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا وَبُسَّتِ ٱلۡجِبَالُ بَسّٗا}، ثم تصنف الناس إلى ثلاثة أصناف متميزة بناءً على أعمالهم ومكانتهم: السابقون المقربون، وأصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة. وتفصل السورة في وصف نعيم أهل الجنة من الصنفين الأولين، وعذاب أهل

النار من الصنف الثالث، في صور حسية قوية تهدف إلى الترغيب والترهيب.

إضاءات لغوية (الواقعة)

- **إذا وقَعَتِ الواقعةُ:** استخدام {إذا} الظرفية للمستقبل مع {الواقعةُ} (وهي اسم فاعل يدل على الحدث الجلل الذي سيقع حتمًا) يفيد تحقق الوقوع ويُلقي بثقله على المتلقي. تسمية القيامة بالواقعة يبرز حقيقتها المادية المحسوسة وشدة أثرها.
- **ليس لِوقْعَتِها كاذِبةٌ:** نفي قاطع لأي تكذيب أو شك في حدوثها {ليس... كاذِبةٌ}. {كاذِبة} مصدر بمعنى الكذب، أي أن وقوعها حق مؤكد، أو أنّها لم يرد في وقوعها كلمة لا تجد مصداقها مستقبلا، فالكاذبة هنا هي الكلمة، والمعنى سواء.
- **خافِضةٌ رافِعةٌ:** صفتان متتاليتان إمّا أن تلحقا بالواقعة فتكون القيامة {خافِضة} لأقوام {رافِعة} لآخرين، وذلك يبيّن أثرها المباشر في قلب الموازين وتغيير المقامات والمصائر، أو تلحقا بالكاذبة، فيكون المعنى ليس ثمّة كلمة كاذبة في حقّ القيامة تخفض أو ترفع، أي ليس

للمكذّب فيها أثر على حقيقتها. والمعنيان متوافقان على اختلافهما.

- **إذا رُجَّتِ الأرضُ رجّا وبُسَّتِ الجبالُ بسّا:** استخدام الفعل غير المسمى فاعله {رُجَّتِ}، {بُسَّتِ} مع المصدر المؤكِّد {رجّا}، {بسّا} يضخّم صورة الحدث الكوني العنيف. {رُجَّتِ} أي زُلزلت بعنف. {بُسَّتِ} أي فُتِّتت وسُحِقَت.

- **فكانَتْ هباءً مُنْبَثّا:** {هباء} هو الغبار الدقيق المتطاير. {مُنْبَثّ} أي منتشر ومتفرق. وصف نهاية الجبال الراسخة بتحولها إلى ذرّات غبار {هباء} يصور زوال ثوابت الدنيا المادية.

- **وكنتُمْ أزواجًا ثلاثةً:** الخطاب للبشرية أو لقريش {كنتُمْ}، وتصنيفهم إلى ثلاثة أصناف {أزواجًا ثلاثةً} يوم القيامة بناءً على أعمالهم، وكلمة أزواج لا تعني بالضرورة التثنية كما مرّ معنى، كأنّ نقول توائم ثلاثة قاصدين ثلاثة إخوة كلّ منهم توأم لأخيه.

- **فأصحابُ الميمنةِ ما أصحابُ الميمنةِ / وأصحابُ المشأمةِ ما أصحابُ المشأمةِ:** الاستفهام بـ {ما} هنا للتعليم والتنبيه لا للاستفهام، والتنبيه هنا يأخذ معناه من المنبّه عليه، فهو للتفخيم والتعظيم لشأن أهل اليُمن

{الميمنـةِ}، والتهويـل والتحقير لشـــأن أهـل الشـــؤم {المشأمةِ}.

- **والسّــابِقونَ السّــابِقون:** تكرار اللفظ {السّــابِقون} يفيد التأكيد على علوّ منزلتهم وتفردهم المطلق بسـبقهم إلى الخيرات.
- **ثُلَّةٌ مِن الأوَّلينَ وقليلٌ مِن الآخِرين:** {ثُلَّة} أي جماعة كثيرة من الأوّلين تـأتي مقـابـل قليـل من الآخرين، والســبق هنا في الأوّل والآخر قد يفهم أنّه نســبيّ، أي أنّهم ثلّـة جزء عظيم في الأوّلين الذين منهم المكذّبين، وقليل من الآخرين نســـبـة لعددهم، وفوق ذلك فهذا السبق قد يكون سبقًا في اتّباع الرسول أو سبقًا من أمم ســابقة في الاســتجابة إلى رســالة الله، وكلّ هذا معنى ممكن حسن لا يتناقض على أنّه متنوّع.
- **على سُرُرٍ موْضونةٍ:** {سُرُر} جمع سرير. {مَوْضونة} أي منسوجة بإحكام ومتانة، ومزينة.
- **وِلْدانٌ مُخلَّدون:** {وِلْدان} خدم الجنّـة. {مُخلَّدون} أي أنّهم سيظلّون خدمًا يجرون على راحة أهل الجنّة مدى الـدهر دون أن يشـــيخوا. وقيـل مخلّـدون تعني أنّهم يلبسون أقراط العبيد "الخلدة".

- **بأكوابٍ وأباريقَ وكأسٍ مِنْ مَعينٍ:** تفصيل لأواني الشرب: {أكواب} (بلا عروة)، {أباريق} (لها عروة وخرطوم)، {كأس} (إذا كان فيها شراب). {مَعين} أي خمر جارية من العيون، أو خمر صافية.
- **لا يُصدَّعونَ عنها ولا يُنزِفون:** نفي آثار خمر الدنيا؛ فلا يصيبهم منها صداع {لا يُصدَّعونَ} ولا ذهاب لكامل العقل تماما {ولا يُنزِفون}، أي إنّها تجلب السكرة والنشوة دون السكر والصداع.
- **وحُورٌ عينٌ كأمثالِ اللُّؤْلُؤِ المكنونِ:** هذه من الكلمات التي يدور حولها لغط كثير، وعلينا بيان ما يعنيه النصّ. أوّلًا العطف في حرف الواو هو عطف على الولدان، أي أنّ الحور تطوف عليهم كما يطوف الولدان ساعيات في خدمتهم، فما الحور؟ {حُور} أي نساء يتصفن بالحَوَر (شدة بياض العين وسوادها). {عين} واسعات الأعين. {المكنون} أي المحفوظ المصون. تشبيه لبيان شدة الصفاء والجمال.
- **لا يسمَعونَ فيها لَغْوًا ولا تأثيما إلا قيلًا سلاما سلاما:** {لَغْو} الكلام الباطل. {تأثيم} أي كلام يوقع في الإثم. البيئة السمعية للجنة طاهرة، ليس فيها إلا الأقوال

"قيل" الذي يتّصف بالسلام الظاهري والباطني "سلامًا سلامًا"، أي هو قول مؤكّد السلميّة.

- **في سِدْرٍ مخْضودٍ وطلْحٍ منْضودٍ:** {سِدْر} شجر النَّبِق. {مخْضود} أي لا شوك فيه. {طَلْح} شجر الموز أو شجر حسن المنظر. {منْضود} أي متراكب الثمر أو الورق.
- **وظِلٍّ ممْدودٍ وماءٍ مسْكوبٍ:** {ممْدود} معروفة، ولكنّها إذا لازمت الظلّ يعني أنّ ظلال الجنّة لا تزول. {مسْكوب} أي جارٍ ومنصب بسهولة.
- **وفُرُشٍ مرفوعةٍ:** {فُرُش} جمع فِراش. {مرفوعة} أي عالية ناعمة، أو رفيعة القدر، وهي هنا كناية عن الأزواج في الجنّة، وهذا مما درج عليه العرب بتسمية الزوج فراشًا وسكنًا.
- **إنّا أنشأناهُنَّ إنشاءً فجعلناهُنَّ أبكارا عُرُبًا أتْرابا:** الحديث عن نساء الجنة. {أنشأناهُنَّ إنشاءً} أي خلقناهن خلقًا جديدًا. {أبكارًا} دائمات أوّل الشباب، وهي ليست بالضرورة متعلّقة بما يسمّى البكارة، فابنك البكر هو أوّل أبنائك رغم أنّه ذكر، {عُرُبًا} أي رشيقات نشيطات {أتْرابا} متماثلات في السن، وقد يكون من معانيه التماثل في كل شيء فهنّ أتراب أي متماثلات.

- **ثُلَّةٌ مِن الأوَّلينَ وثُلَّةٌ مِن الآخِرين:** بخلاف السابقين، فإن أصحاب اليمين كثرة من الأولين وكثرة من الآخرين، ويجري على ذلك ما جرى على القسم الأوّل من نسبيّة كلمة ثلّة، ومن معنى الأوّلين والآخرين.
- **في سمومٍ وحميمٍ وظِلٍّ مِنْ يحْمومٍ:** {سموم} ريح حارة نافذة. {حميم} ماء شديد الحرارة. {يحْموم} دخان شديد الحرارة، أو هي الحرارة ذاتها كأنّها تظلّهم، فهو سمّي ظلًّا لأنه يلفّهم لكنّه ليس ظلًّا على الحقيقة.
- **لا بارِدٍ ولا كريمٍ:** هذا الظل {لا بارِدٍ} ولا هو منزلة كريمة {ولا كريمٍ}.
- **كانوا قبلَ ذلكَ مُترَفين:** {مُترَفين} أي منغمسين في النعيم والترف الذي يورث الغفلة والبطر. هذا هو سبب استحقاقهم للعذاب.
- **يُصِرُّونَ على الحِنْثِ العظيمِ:** {يُصِرُّونَ} أي يداومون. {الحِنْث العظيم} هو الذنب الكبير، كالشرك أو إنكار البعث.
- **لَمَجْموعونَ إلى ميقاتِ يومٍ معلومٍ:** اللام للتوكيد. {ميقات} أي وقت ومكان محدد. اليوم هو يوم القيامة.

- **شـجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ:** الزقّوم هو ما يعلق بالحلق، وهنا هو يعلق بالحلق بسـبب الألم، ولمّا سـمع هذه كفّار مكّة أخذوها بلغة عرب إفريقيا بمعنى التمر بالزبدة، إذ هو يعلق بـالحلق، فقـالوا: أبهـذا يتوعّـدنـا إلهـك! فـأتى التوضـيح فيما بعد بأنّها شـجرة مخصّـصـة لأهل النار تعلق بالحلق أيضًا لسبب آخر.
- **فشـارِبونَ عليهِ مِن الحَميمِ:** يشـربون فوق هذا الطعام ماءً حارًا {الحَميم}.
- **فشارِبونَ شُرْبَ الهيمِ:** {الهيم} هي الإبل العطشى التي تشرب بشدة ولا ترتوي. تشبيه لحالهم.
- **هذا نُزُلُهُمْ يومَ الدّينِ:** {نُزُل} ما يُعد للضـيف عند قدومه. هذا هو استقبالهم يوم الجزاء، تهكمًا بهم.
- **نحنُ خلقْناكُمْ فلولا تُصـدِّقون:** بعد وصـف المصـائر، تـأتي الحجج لإثبـات القـدرة على البعـث. {فلولا تُصدِّقون} أي فهلا تصدقون بالبعث.
- **أفرأيتُمْ مـا تُمْنـون... ءأنْتُمْ تخلُقونَـه... ءأنْتُمْ تزرَعونَه... ءأنْتُمْ أنزلْتُموهُ... ءأنْتُمْ أنشأتُمْ شجرتَها:** سلسلة استفهامات تقريرية متتالية {أفرأيتُمْ... ءأنْتُمْ...} تلفـت النظر إلى أطوار الخلق (المني {تُمْنون})، والنبات (الحرث والزرع)، والماء (السحاب {المُزْن})،

والنار (الشجر {تُورُون})، لتؤكد عجز الإنسان وقدرة الله المطلقة.

- **وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ على ...:** أي لسنا بمغلوبين أو بعاجزين عن فعل كذا.
- **لو نشاءُ لجعلْناهُ حُطاما / أُجاجا:** بيان لمشيئة الله المطلقة؛ فلو شاء لجعل الزرع {حُطاما} (يابسًا) والماء {أُجاجا} (شديد الملوحة).
- **فظَلْتُمْ تفكَّهون:** {فظَلْتُمْ} أي فبقيتم. {تفكَّهون} أي تتعجبون وتتحدثون، أو تندمون.
- **إنّا لمُغْرَمون بلْ نحنُ محرومون:** {لمُغْرَمون} أي ملزمون بخسارة ما أنفقنا. {بلْ نحنُ محرومون} أي الأمر أشد، وهو الحرمان التام. هذا قولهم الافتراضي.
- **تذكرةً ومتاعا لِلْمُقْوين:** جعلنا النار {تذكرةً} بنار جهنم، ومنفعة {متاعا} {لِلْمُقْوين} وهم طالبو القوّة، وتطلب القوّة في الدابّة عند السفر، أو تطلب في النار في برد الصحراء.
- **فسبِّحْ باسمِ ربِّكَ العظيمِ:** الأمر بالتسبيح نتيجة لدلائل القدرة والعظمة السابقة.

- **فلا أُقسِمُ بمواقِعِ النُّجومِ:** {فلا أُقسِمُ} أي فأقسم قسمًا مؤكدًا. {بمواقِعِ النُّجومِ} أماكنها المتغيّرة والثابتة.
- **وإنّهُ لقسَمٌ لو تعلمونَ عظيمٌ:** تعظيم لشأن هذا القسم {لقسَمٌ... عظيمٌ} الذي يحتاج إدراك عظمته إلى علم وتفكر {لو تعلمونَ}.
- **إنّهُ لقرآنٌ كريمٌ:** جواب القسم: إن هذا الذي تتلونه هو {لقرآنٌ} ذو مكانة رفيعة {كريمٌ}.
- **في كتابٍ مكنونٍ:** أي في عهد محفوظ.
- **لا يمَسُّهُ إلا المُطهَّرون:** الضمير يعود للكتاب المكنون (اللوح المحفوظ). {لا يمَسُّهُ} أي لا يفهم ما فيه إلّا أصحاب القلوب الطاهرة {المُطهَّرون}.
- **أفبهذا الحديثِ أنتُمْ مُدْهِنون:** استفهام توبيخي. {الحديث} أي القرآن. {مُدْهِنون} أي تطلبون المداهنة والتنازل من قبلنا لتتنازلوا من جهتكم.
- **وتجعلونَ رِزقَكُمْ أنّكُمْ تُكَذِّبون:** أي تجعلون حظكم ونصيبكم {رِزقَكُمْ} من هذا القرآن هو التكذيب به، والنصيب هنا ما يجرّه عليكم هذا التكذيب في الآخرة من عذاب.

- **فلولا إذا بلَغَتِ الحُلْقومَ:** {فلولا} حرف تحضيض بمعنى هلا. {بلَغَتِ} أي الروح. {الحُلْقومَ} مجرى النفس. هلاّ إذا وصلت الروح إلى الحلقوم... (يأتي الجواب).
- **ونحنُ أقرَبُ إليهِ منكُمْ ولكنْ لا تُبصِرون:** تأكيد على قرب الله (بعلمه وملائكته) من المحتضر أكثر من قرب أهله منه {ونحنُ أقرَبُ...}، ولكن الحاضرين لا يرون ذلك {لا تُبصِرون}.
- **فلولا إنْ كنتُمْ غيرَ مدينينَ ترجِعونها إنْ كنتُمْ صادِقين:** {غيرَ مدينينَ} أي غير مملوكين لله، غير محاسبين (المدين المملوك أو الذي عليه دين يجب قضاؤه). {ترجِعونها} أي ترجعون الروح إلى الجسد. تحدٍّ إلهي: هلاّ إن كنتم غير خاضعين لسلطاننا، أن تعيدوا الروح إذا بلغت الحلقوم؟ والمعنى هنا أن تتّعظوا بالموت الذي لا ينجو منه أحد، أمّا إنقاذ شخص كان سيموت ووصل إلى الاختناق فهو كان ممكنا قديما وهو أشدّ إمكانًا مع تطوّر الطبّ.
- **فرَوْحٌ وريحانٌ وجنَّتُ نعيمٍ:** جزاء المقربين: {رَوْحٌ} أي راحة ورحمة. {ريحانٌ} أي رزق طيب أو نبات طيب الرائحة. {وجنَّتُ نعيمٍ}.

- **فسلامٌ لكَ مِنْ أصحابِ اليمينِ:** وعد لأصحاب اليمين بالسلام والأمان {فسلامٌ لكَ} أي يا له من سلام يعيشون فيه.
- **فنُزُلٌ مِنْ حَميمٍ وتصْلِيَةُ جحيمٍ:** ضيافة {نُزُل} المكذبين هي الماء الحار {حَميم}، وعاقبتهم هي مقاساة حر النار {تصْلِيَةُ جحيمٍ}.
- **إنَّ هذا لهُوَ حقُّ اليقينِ:** {حقُّ اليقينِ} أي ما يثبت من الاعتقاد الراسخ عند الفحص وهو من أشدّ التوكيد.
- **فسبِّحْ باسمِ ربِّكَ العظيمِ:** ختام السورة يعود لتنزيه الله وتعظيمه، وهو الأمر المناسب بعد عرض دلائل القدرة وحقائق المصير.

مقالة السورة (الواقعة)

إذا حَقَّت القيامة ووقعت {إذا وقَعَتِ الواقعةُ}، فلن يكون لأي تكذيب بها شأن يحدث فرقًا {ليس لِوقْعَتِها كاذِبةٌ خافضة رافعة}، أو هي الحقّ لا جدال فيه، وهي في ذاتها أو بما يتبعها {خافِضةٌ} لأقوام كانوا في الدنيا أعزاء، {رافِعةٌ} لآخرين كانوا مستضعفين أو متواضعين.

تبدأ أهوالها بانقلاب كوني عظيم: {إذا رُجَّتِ الأرضُ رجّا} زلزلة عنيفة تهتز لها أركانها، {وبُسَّتِ الجبالُ بسّا} فتُفتت وتُسحق الجبال الشاهقة، {فكانَتْ هباءً مُنْبَثّا} تصير كالغبار المتطاير المنتشر لا قيمة له ولا ثبات.

وعندها، ينقسم الناس ويتمايزون إلى ثلاثة أصناف {وكنتُمْ أزواجًا ثلاثةً}: فأما {أصحابُ الميمنةِ}، فما أعظم شأنهم وما أسعد حالهم! {ما أصحابُ الميمنةِ}. وأما {أصحابُ المشأمةِ}، فما أشأم مصيرهم وما أسوأ حالهم! {ما أصحابُ المشأمةِ}. والصنف الثالث والأعلى منزلة هم {والسّابِقونَ} في الإيمان والخيرات في الدنيا، فهم {السّابِقون} إلى النعيم والدرجات العلى في الآخرة.

هؤلاء السابقون هم {ٱلْمُقَرَّبُونَ} من الله تعالى، مكانهم {فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ}. وهم جماعة كثيرة من الأمم الأولى {ثُلَّةٌ مِن الأوَّلينَ}، وقليل نسبيًا من الأجيال المتأخرة (أو من أمة محمد) {وقليلٌ مِن الآخِرين}. يتنعمون {عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ} منسوجة بإتقان ومرصعة، يجلسون عليها في راحة واطمئنان {مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا}، ووجوههم متقابلة في أنس ومودة {مُتَقَٰبِلِينَ}. ويخدمهم {وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ} لا يهرمون ولا يتغيرون، يطوفون عليهم بأواني الشراب المتنوعة: {بِأَكْوَابٍ} لا عرى لها، {وَأَبَارِيقَ} لها عرى وخراطيم، {وَكَأْسٍ} ممتلئة بخمر جارية من الأنهار {مِّن مَّعِينٍ}. وهذه الخمر السماوية لا تسبب

صـــــداعًا ولا تذهب بالإدراك كما تفعل خمر الدنيا {لَّا يُصَـــدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ}. ولهم أيضًـــا {وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ} يختارون منها ما تشتهيه أنفسهم، {وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ}. ويطوف عليهم بالخدمة أيضًا {حُورٌ عِينٌ}، نساء جميلات واسعات الأعين، يتصفن بالحور، صافيات نقيات {كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ} الذي لم يتغير لونه ولم تمسه الأيدي. كل هذا النعيم هو {جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} في الدنيا. ومن تمام النعيم أن بيئة الجنة طاهرة نقية، {لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا}، لا كلام باطل ولا ما يؤثم، {إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا}، لا يسمعون إلا القول المؤدّي للسلام النابع منه.

ثم يأتي وصف نعيم الصنف الثاني، وهم {وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ}، وما أدراك ما شأنهم وما أعظم حالهم {مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ}! هم يتنعمون {فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ} لا شوك فيه، {وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ} متراكب الثمر، {وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ} دائم لا يزول، {وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ} جارٍ بسهولة، {وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ} متنوعة، {لَّا مَقْطُوعَةٍ} (دائمة لا تنتهي بموسم) {وَلَا مَمْنُوعَةٍ} (لا يُحرمون منها). وهم مع أزواجهم {وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ} ذات قدر ومكانة. هؤلاء الأزواج قد {إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً} خلقًا جديدًا كاملًا، {فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا} في نضارة دائمة، {عُرُبًا} رشيقات، {أَتْرَابًا} متماثلات في الحسن والشباب. وهذا النعيم معدٌّ {لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ}، وهم جماعة كثيرة من الأولين {ثُلَّةٌ

مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ} وجماعة كثيرة أيضًـــا من الآخرين {وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ}.

وفي المقابل، يأتي وصف الصنف الثالث {وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ}، فما أسوأ حالهم ومصيرهم {مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ}! هم يعذبون {فِي سَـمُومٖ} ريح حارة نافذة، {وَحَمِيمٖ} ماء شـديد الحرارة، {وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ} أي دخان أســود حار يحيط بهم، وهو يظلّهم لكنّه ليس بالظلّ الحقيقيّ {لَّا بَارِدٖ} لا يقي من الحر {وَلَا كَرِيمٍ} لا كرامة فيه. وتوضح السورة سبب هذا المصير البائس: {إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ} منغمســين في النعيم الدنيوي الذي أورثهم الغفلة، {وَكَانُواْ يُصِـــرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ} أي يداومون على الشــرك أو إنكار البعث، {وَكَانُواْ يَقُولُونَ} استبعادًا واستهزاءً: {أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ * أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ}. فيأتيهم الرد الحاسم {قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ * لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ}.

ثم يخاطب هؤلاء المكذبين الضــالين مباشــرة: {ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ * لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ} الذي يعلق بالحلق لمرارته أو أذاه، {فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ} لشــدة جوعهم، {فَشَٰـرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ} الماء الحار ليهدأ ألم الزقوم فلا يجدون إلا ألمًا فوق ألم، {فَشَٰـرِبُونَ شُـرۡبَ ٱلۡهِيمِ} كالإبل العطشــى التي لا ترتوي. {هَٰذَا نُزُلُهُمۡ} هذه ضــيافتهم وإكرامهم(!) {يَوۡمَ ٱلدِّينِ}.

بعد هذا التفصيل للمصائر، تقيم السورة الحجة على منكري البعث بتذكيرهم بقدرة الله في الخلق الأول: {نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ}. ثم توجه أنظارهم إلى دلائل القدرة في أنفسهم وفيما حولهم من خلال أسئلة تقريرية لا يملكون إزاءها إلا الإقرار بالعجز: {أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ} أي قدرتكم على إنجاب الأبناء هي بيد الله. وتذكرهم بأن الله هو من قدر الموت بينهم، وأنه غير عاجز أو مسبوق {وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ} عن أن يبدلهم ويخلقهم خلقًا جديدًا لا يعلمون كنهه {وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ}. وتذكرهم بعلمهم بالنشأة الأولى، فلماذا لا يتذكرون قدرة الله على النشأة الثانية؟ {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ}.

وتستمر الحجج: {أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ * ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ}؟ فالله هو الزارع الحقيقي، ولو شاء لجعله حطامًا لا فائدة منه، وعندها لن يبقى لكم إلا الندم والتحسر وقول: {إِنَّا لَمُغْرَمُونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ}. وكذلك الماء الذي يشربون: {أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِي تَشْرَبُونَ * ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ}؟ فالله هو منزله، ولو شاء لجعله ملحًا أجاجًا لا يُشرب، {فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ}. والنار التي يوقدونها: {أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ * ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ}؟ فالله هو منشئ أصلها، وقد جعلها

{تَذۡكِرَةٗ} بنار الآخرة ومنفعة {وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ} المسافرين والمحتاجين. وبعد كل هذه الدلائل على القدرة والنعمة، يأتي الأمر الطبيعي: {فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ}.

ثم تقسم السورة قسمًا عظيمًا بمواقع النجوم ومساراتها الدقيقة {فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ}، وتؤكد عظمة هذا القسم {وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ}، ليكون الجواب أن هذا القرآن ذو قدر عظيم وشرف {إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ}، وهو محفوظ في عهد موثّق {فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ} لا يفهم كنهه إلّا أصحاب القلوب الطاهرة {لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ}، وهو {تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ}. وبعد هذا البيان لعظمة القرآن ومصدره، يأتي التوبيخ للمكذبين: {أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ}؟ أي تطلبون التهاون منه والمداهنة، {وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ} أي حظكم ونصيبكم منه {أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ}؟

ثم تتحدى السورة هؤلاء المنكرين في لحظة لا يملكون فيها لأنفسهم شيئًا، وهي لحظة الاحتضار: {فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ} الروح {ٱلۡحُلۡقُومَ * وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ} عاجزين، والله بعلمه وملائكته أقرب إليه منهم، ولكنهم لا يبصرون {وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ}. هلاّ إن كنتم غير محاسبين أو مملوكين لله {فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ}، أن تعيدوا هذه الروح وتمنعوها من الخروج {تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ}؟ والكلام عن مطلق الموت الذي لا يردّ.

وتعود السورة لتفصل في مصائر الأصناف الثلاثة بعد هذه اللحظة الحاسمة: {فَأَمَّآ إِن كَانَ} المحتضر {مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ * فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ}. {وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ * فَسَلَٰمٞ لَّكَ}، يا له من سلام وأمان ينتظره {مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ}! {وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ * فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ * وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ}.

وتختم السورة بتأكيد قاطع على أن كل ما ورد فيها هو الحق اليقيني الذي لا شك فيه {إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ}، وتعيد الأمر بتنزيه اسم الرب العظيم وتعظيمه {فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ} وأن يظلّ يذيع هذا القرآن تسبيحا منه لله أي أن ينشره بين الناس.

المعنى الشمولي (الواقعة)

تتمحور سورة الواقعة حول تأكيد حقيقة القيامة {ٱلۡوَاقِعَةُ} التي لا شك في وقوعها ولا يؤثّر إنكارهم في حقيقتها، وتقدم وصفًا تفصيليًا لأهوالها وآثارها الحاسمة في تغيير المصائر، ردًا على استهزاء المنكرين وتعريضهم بآيات الله. تبدأ السورة بتصوير الانقلاب الكوني الهائل المصاحب لقيام الساعة، من ارتجاج الأرض وتفتت الجبال حتى تصير هباءً

منثورًا، لتهيئة الذهن لاستقبال الحدث الأعظم وهو فصل الخلائق.

تؤسس السورة لتقسيم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف واضحة بناءً على أعمالهم وسبقهم في الدنيا: السابقون المقربون، وأصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة. وتفصل السورة بإسهاب في نعيم الصنفين الأولين وما أُعد لهما في جنات النعيم من ألوان الراحة والتكريم والمتاع الحسي والمعنوي الخالص من كل شائبة دنيوية ({لا لَغْوًا ولا تأثيما إلا قيلًا سلاما سلاما})، وفي المقابل تصور بدقة عذاب الصنف الثالث وما يلاقونه في النار من سموم وحميم وظل يحموم، رابطة هذا المصير البائس بما كانوا عليه في الدنيا من ترف أورث الغفلة {مُترَفين} وإصرار على الشرك أو إنكار البعث {ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ}.

بعد عرض هذه المصائر المتباينة، تقيم السورة الحجة الدامغة على منكري البعث من خلال لفت أنظارهم إلى دلائل القدرة الإلهية في الخلق الأول وفي نواميس الكون والحياة التي يشاهدونها ويعايشونها: خلق الإنسان من النطفة، وإنبات الزرع، وإنزال الماء، وإيجاد النار من الشجر. وتقدم هذه الحجج في صيغة استفهامات تقريرية تتحدى الإنسان وتبرز عجزه أمام قدرة الخالق {ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ}.

ثم تؤكد السورة على مكانة القرآن الكريم وعلو شأنه {إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ}، وأنه منزل من رب العالمين ومحفوظ في أصله {فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ} لا يدرك كنهه إلا المطهرون قلوبًا. وتوبخ المشركين على محاولتهم مساومة هذا الحديث العظيم {أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ} وجعلهم حظهم منه هو التكذيب به {وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ}.

وتختتم السورة بتحدٍ أخير للمنكرين عند لحظة الموت التي لا يملكون فيها ردًا لقضاء الله {فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَآ} فمن يملك أمره فليملك أمر موته، ثم تعيد التأكيد على مصائر الأصناف الثلاثة بعد الموت، لتخلص إلى أن كل ما جاء في السورة هو {حقُّ ٱلْيَقِينِ} الذي لا يرقى إليه شك، وتأمر بتسبيح اسم الرب العظيم الذي دلت كل هذه الآيات على قدرته وحكمته وعدله. إنها سورة الفصل بين الحق والباطل، وبين مصائر المؤمنين والمكذبين، بناءً على الموقف من حقيقة البعث والجزاء.

مقالات القرآن العظيم 43 | سورة الشعراء

تأتي سورة "الشعراء" (قرابة السابعة والأربعين في ترتيب النزول التقريبي)، في مرحلة متقدمة من الدعوة المكية، حيث تزايدت حدة المواجهة والتكذيب، وربما بدأت تُوجَّه اتهامات محددة للنبي بأنه شاعر أو أن القرآن من قبيل الشعر. تفتتح السورة بحروف النور {طسم}، وتستهل بتسلية النبي صلى الله عليه وسلم والتخفيف من حزنه الشديد على إعراض قومه {لعلَّك باخِعٌ نفسَك ألّا يكونوا مؤمنين}، مؤكدةً أن الهداية بمشيئة الله ولو شاء لأنزل آية قاهرة تخضع لها أعناقهم.

تتميز السورة ببنيتها القصصية المتسلسلة، حيث تستعرض بإسهاب قصص عدد من الأنبياء (موسى، إبراهيم، نوح، هود، صالح، لوط، شعيب) مع أقوامهم، وتُختتم كل قصة بالتعقيب المتكرر {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ}. هذا التكرار يهدف إلى ترسيخ سنة الله في إهلاك المكذبين وإنجاء المؤمنين، وإبراز صفتي العزة والرحمة الإلهيتين كخيط ناظم لتاريخ الصراع بين الحق والباطل، وتقديم العبرة والإنذار لقريش من خلال مصائر الأمم السابقة.

وفي ختامها، تعود السورة لتواجه الاتهام بأن القرآن شعر أو إلقاء من الشياطين، فتدافع عن طبيعة الوحي الإلهي وتنزهه عن ذلك، وتفرق بين منهج الأنبياء الهادف للحق والهداية، وبين منهج الشعراء الذين يتبعهم الغاوون ويهيمون في كل وادٍ غالبًا، مع استثناء الشعراء المؤمنين الصالحين الذين يذكرون الله وينتصرون للحق. إنها سورة التاريخ النبوي المتكرّر، وسنن الله في الأمم، ودفاع عن حقيقة الوحي القرآني.

إضاءات لغوية (الشعراء)

- **طسم (طا. سين. ميم):** حروف مقطعة تفتتح بها السورة، كوظيفتها المعتادة في أوائل السور للتهيئة، وللإشارة إلى مادة الوحي اللغوية التي يعرفها المخاطَبون ويُبنى منها هذا الكلام.
- **تلكَ آياتُ الكتابِ المُبينِ:** الإشارة بـ{تلكَ} للتعظيم، وهنا نراها عائدة بصورة واضحة على الأحرف المقطّعة. وصف الكتاب بأنه {المُبين} أي الواضح في ذاته، والمبيّن للحقائق.
- **لعلَّك باخِعٌ نفسَك ألّا يكونوا مؤمنين:** {باخِعٌ نفسَك} أي مُهلكٌ نفسك حزنًا وأسفًا بسبب عدم إيمانهم.

الخطاب يُظهر شـــدة حرص النبي، ويأتي لتســـليته والتخفيف عنه، وبيان أن هدايتهم ليســـت مســـؤوليته المباشرة. {ألّا} تعليلية، أي بسبب كونهم لا يؤمنون.

- **فظَلَّتْ أعناقُهُمْ لها خاضِعين:** {فظَلَّتْ} تفيد الاستمرار. {أعناقُهُمْ} كناية عنهم، فخضـــوع العنق هو غاية الذل. {خاضِعين} بصيغة جمع العاقل، لأن خضوع الأعناق يستلزم خضـوع أصـحابها. الآية تشـير إلى أن الله لو شـــاء لأنزل آية قاهرة تجبرهم، لكن حكمته اقتضـــت ترك الاختيار، وهو أســلوب مطروق في كلام العرب بالالتفات ليكون الموضوع هو الكفّار لا أعناقهم.

- **مِنْ ذِكْرٍ مِن الرّحمنِ مُحْدَثٍ:** وصـــف الذكر (القرآن) بأنه يأتي {مِن الرّحمنِ} للتأكيد على مصـــدره، وأنه {مُحْدَث} أي يحدثه الله لهم، أي يكون ابن زمانهم، مما يقتضـــي منهم تجدد الاســتماع والتدبر، لكنهم يقابلونه بالإعراض المستمر.

- **فسـيأتيهِمْ أنباءُ ما كانوا بهِ يسـتهزِئون:** الفاء سـببية، والسـين للمسـتقبل القريب. {أنباء} أي أخبار تحقق ما استهزؤوا به وسـخروا منه (العذاب أو القيامة). وعيد بتحقق ما كذبوا به.

- **مِنْ كلِّ زوجٍ كريمٍ:** {زوج} أي صنف ونوع. {كريم} أي حسن المنظر، نافع، كثير الخير. لفت النظر إلى قدرة الله في تنوع النبات.

- **وإنّ ربَّك لهُوَ العزيزُ الرّحيمُ: (لازمة متكررة)** هذه الخاتمة المتكررة لقصص الأنبياء في السورة تمثل محورًا رئيسيًا. {العزيزُ} الغالب القادر على الانتقام من المكذبين وإهلاكهم. {الرّحيمُ} واسع الرحمة (وهي كما تناولناها سابقًا بمعنى الوسع بما يشمل الرأفة ولا يقتصر عليها) الذي أنجى الرسل وأتباعهم وأمهل الكافرين وأرسل إليهم الرسل رحمة بهم. الجمع بين الصفتين يربط بين مظهر العزة في إهلاك الظالمين ومظهر الرحمة في إمهالهم وإنجاء المؤمنين، وتكرارها يرسخ هذه السنة الإلهية.

- **أنِ ائْتِ القومَ الظّالمين... ألا يتّقون:** تحديد مهمة موسى: الذهاب إلى {القومَ الظّالمين} ويجري تحديدهم فيما بعد بقوم فرعنه، والاستفهام {ألا يتّقون} فيه استنكار لحالهم ودعوة ضمنية للتقوى.

- **ويضيقُ صدري ولا ينطلِقُ لساني فأرسِلْ إلى هارون:** شكوى موسى البشرية من الخوف من التكذيب،

وضـيق الصـدر بثقل المهمة، وعقدة اللسـان، وطلبه إرسال أخيه هارون للمؤازرة.

- **ولَهُمْ عليَّ ذنْبٌ فأخافُ أنْ يقتُلون:** سـبب إضـافي لخوف موسـى، وهو حادثة القتل السـابقة التي تجعله مطلوبًا لهم، ولاحظ هنا أنّ الذنب عليه لهم، فلو كان لهم فقط دون أن ترد كلمـة عليـه لظهر أنّهم هم المذنبون، لكنّ هذا إقرار من موسى بذنبه. ونحن رأينا في السورة السابقة أنّ مسألة قتله نفسًا كانت ممّا ذكّره الله به فهو لم يذكرها عند الطلب، فهل هذا تغيير في مجريات الكلام بين موسـى وربّه؟ سـنجيب عن كل ما يرد من اختلاف في القصـص في مقالة مسـتقلّة تكون ملحقة بهذا الجزء.
- **قالَ كلّا فاذْهبا بآياتِنا إنّا معَكُمْ مُستمِعون:** الرد الإلهي {كلّا} ينفي مخاوف موسـى. والأمر بالذهاب {فاذْهبا} مؤيدًا بـالآيـات، مع تـأكيد المعيـة الإلهيـة {إنّـا معَكُمْ} بالسـمع {مُسـتمِعون} والنصـرة، وهنا انتقل للخطاب وكأنّ هارون بات حاضرًا وهذا أسلوب شعريّ بتجاوز ما يحسن السكوت عنه.
- **قالَ ألَمْ نُربِّك فينا وليدًا... وفعلْتَ فعلتَك... وأنتَ مِن الكـافِرين:** حجـة فرعون قـائمـة على المنّ بـالتربيـة،

والتذكير بحادثة القتل {فعلتَك}، واتهام موسى بالكفر {مِن الكافِرين} والكفر هنا كلّ محاولة للظهور على الحاكم. وقد شرحنا المفردة من قبل.

- **قالَ فعلتُها إذًا وأنا مِن الضّالّين:** اعتراف موسى بالقتل {فعلتُها} واستخدام ظرف زمانيّ "إذًا" بمعنى آنئذ، إذ كان من الضالّين، وهذا توضيح لكونه لم يعد ضالًّا، وإقرار منه بكونه ضالًّا حينها.
- **فوَهَبَ لي ربّي حُكْمًا وجعلَني مِن المُرسَلين:** ينسب الفضل لله في نجاته ومنحه الحكمة {حُكْم} والرسالة.
- **وتلكَ نعمةٌ تمُنُّها عليَّ أنْ عبّدْتَّ بني إسرائيل:** ردّ موسى القوي الذي يقلب حجة فرعون؛ فأي نعمة في تربيته وهو يستعبد قومه؟ الاستفهام إنكاري، وصيغة "عبّدت" تشي بالتعدّي أي جعلتهم عبيدًا عن آخرين غيرك.
- **قالَ فرعونُ وما ربُّ العالمين:** سؤال فرعون الإنكاري الاستخفافي.
- **قالَ ربُّ السماواتِ والأرضِ... ربُّكُمْ وربُّ آبائِكُمُ الأوَّلين... ربُّ المشرِقِ والمغرِبِ...:** أجوبة موسى المتتالية تعرف الله بآثاره في الخلق والربوبية الشاملة،

وهي حجج بلاغيّة تحدّث الناس بما يعرفونه، لتقريب ما لا يعرفونه.

- **قالَ إنَّ رسولَكُمُ... لمجنونٌ:** لجوء فرعون لاتهام موسى بالجنون عند عجزه عن مواجهة الحجة، ومن العجيب هنا أن يستخدم كلمة "رسولكم"، فهو لا يقرّ له بالرسالة، لكنّها قد تأتي بمعنى من أرسلتموه إليّ، أو من يظنّ أنّه مرسل فيكم.
- **قالَ لئِنِ اتّخذْتَ إلهًا غيري لأجعلَنَّك مِن المسجونين:** تهديد فرعون المباشر لموسى بالسجن إذا رأى أنّه ثمّة ملجأ سواه، فهذا يشي بأنّه لم يزل حتّى ذلك الوقت ينظر له على أنّه ابن له، لكنّه لديه عنجهيّة السلطان.
- **فألقى عصاهُ فإذا هيَ ثُعْبانٌ مُبينٌ... ونزَعَ يدَهُ فإذا هيَ بيضاءُ للنّاظرين:** {فإذا} الفجائية تبرز المعجزة. {مُبين} أي حقيقي واضح. {بيضاءُ} ذات نور ظاهر {للنّاظرين}.
- **فماذا تأمُرون:** سؤال فرعون لكبار قومه بعد تفسير أفعال موسى بالسحر تعني أنّه رأى أنّه أصاب منهم شيئا في قلوبهم.
- **قالوا أرْجِهْ وأخاهُ وابعَثْ في المدائنِ حاشِرين يأتوكَ بكلِّ سَحّارٍ عليمٍ:** مشورة الملأ: تأخير أمر موسى

وهارون {أَرْجِهْ}، وجمع أمهر السحرة {كلِّ سَحّارٍ عليمٍ}، وهنا هم سحرة عليمون بالسحر، فهم قادرون على البتّ في كونه ساحرًا أو شيئًا آخر.

- **بعِزَّةِ فرعونَ إنّا لنحنُ الغالِبون:** قسم السحرة بعزة فرعون يُظهر ارتباطهم به.
- **فأُلْقِيَ السّحَرةُ ساجِدين:** الفعل {أُلْقِيَ} يوحي بأن قوة الحق القاهرة هي التي دفعتهم للسجود.
- **قالَ آمَنْتُمْ لهُ قبلَ أنْ آذَنَ لكُمْ:** غضب فرعون من كسر هيبته بالإيمان دون إذنه، وهذا افتعال لمعركة جانبيّة إذ إنّ فرعون سيكون محرجًا أمام كبار قومه ومضطرًّا لتبرير انتصار موسى على السحرة.
- **إنّهُ لكبيرُكُمُ الذي علَّمَكُمُ السِّحْرَ:** الصيغة التي برّر بها انتصار موسى على السحرة (مجرّد مؤامرة).
- **قالوا لا ضَيْرَ إنّا إلى ربِّنا مُنقَلِبون:** {لا ضَيْرَ} أي لا ضرر علينا من تهديدك. إعلان عدم اكتراثهم بعذاب الدنيا.
- **أنْ كُنّا أوَّلَ المُؤمِنين:** رجاؤهم في المغفرة لكونهم أول من آمن من ذلك الجمع.

- **التفاصيل المفقودة:** تقفز السورة عن سائر القصّة ولا تخبر كيف انتهى ذلك اللقاء وكيف تمكّن موسى أن يأخذ معه بني إسرائيل.
- **أنْ أسْرِ بعبادي إنّكُمْ مُتَّبَعون:** الأمر بالإسراء ليلاً {أسْرِ}، مع الإخبار بأن فرعون سيتّبعهم.
- **إنَّ هؤلاءِ لشِرْذِمةٌ قليلون... وإنّا لجميعٌ حاذِرون:** كلام فرعون في التحشيد؛ يقلل من شأن بني إسرائيل {شِرْذِمةٌ قليلون}، ويظهر غيظه منهم {لَغائِظون}، ويصور نفسه وقومه بأنهم جمع كثير مستعد {لجميعٌ حاذِرون}.
- **فأخرجناهُمْ مِنْ جنّاتٍ وعيونٍ وكنوزٍ ومقامٍ كريمٍ:** بيان عاقبة طغيانهم؛ حرمانهم من النعم التي كانوا فيها. الانتقال المفاجئ للنهاية (كذلك وأورثناها...) فيه ردّ على التسخيف من شأنهم لقلّتهم والتعظيم من حذر فرعون وقومه.
- **كذلكَ وأورَثْناها بني إسرائيل:** تحقق الوعد الإلهي بنجاة بني إسرائيل وتمكينهم، والميراث قد يكون ذات الجنّات والعيون وقد يكون غيرها، وهذا ما لا تبيّنه السورة.

- **فلمّا تراءَى الجَمْعانِ قالَ أصحابُ موسى إنّا لمُدْرَكون:** {تراءَى} أي رأى كل جمع الآخر. {لمُدْرَكون} أي سيلحق بنا فرعون. يأس أصحاب موسى لأنّهم يدركون أنّهم يسيرون مثقلين بأحمالهم، بينما الذين يتّبعهم جند راكبون فهم بالغوهم لا محالة.
- **قالَ كلّا إنَّ معيَ ربّي سيهدين:** رد موسى الواثق بربه {كلّا}، مؤكدًا معيّة الله {إنَّ معيَ ربّي} ويقينه بالهداية {سيهدين} إلى حلّ ما.
- **فانفلَقَ فكانَ كلُّ فِرْقٍ كالطَّوْدِ العظيمِ:** {انفلَقَ} انشق البحر. {فِرْقٍ} جزء من الماء. {كالطَّوْدِ العظيمِ} كالجبل الضخم. وفي هذه تروى عجائب كثيرة لم تقلها الآية مثل أن يكون البحر قد انشقّ إلى اثني عشر طريقا أو سواه، وكذلك فإنّ المسكوت عنه في القصّة أنّ فرعون وقومه عانوا من نقص الثمرات (وهذا يرد في سور أخرى) ما يشي بقلّة ماء النهر لو كان اليمّ المقصود نهرا، وقد تحدث عواصف تجعل الماء يتجمّع كأنّه جبل، لكنّ الواضح من السورة أنّهما جمعان، فموسى وأصحابه جمع، وقوم فرعون جمع، فليس ثمّة تقسيم لمجموعة من السبل في البحر، وهو حسب القصّة طريق واحد من ماء انفلق ولم يتفلّق فهي درب مسير واحدة.

- **وأزلفْنا ثمَّ الآخَرين:** {أزلفْنا} أي قربنا. {ثَمَّ} أي هناك. {الآخَرين} فرعون وجنوده. قربناهم من مكان هلاكهم.
- **واتْلُ عليهِمْ نبَأَ إبراهيم:** الانتقال إلى قصـــة إبراهيم لتقديم نموذج آخر للتوحيد.
- **فإنّهُمْ عدوٌّ لي إلّا ربَّ العالمين:** إعلان إبراهيم البراءة التامة من معبودات قومه، واســتثناء الله وحده، ويبدو من هذا الكلام أنّهم كانوا يعبدون الله ضـــمن الآلة الأخرى.
- **الـذي خلَقَني فهُوَ يهـديني... والـذي هوَ يُطعِمُني ويَسْقيني...:** وصف إبراهيم لربه بأفعاله المستمرة في الخلق والهداية والرزق والشفاء والإماتة والإحياء.
- **ربِّ هَبْ لي حُكْمًا وألحِقْني بالصّـــالِحين...:** دعاء إبراهيم يطلب فيه الحكمة {حُكْم}، أو الســلطان، واللحاق بالصالحين، والذكر الحسن {لسانَ صدقٍ في الآخِرين}، والفوز بالجنة، والمغفرة لأبيه، والســلامة من الخزي.
- **يومَ لا ينفَعُ مالٌ ولا بنون إلا مَنْ أتى اللهَ بقلْبٍ سـليمٍ:** معيار النجاة يوم القيامة هو القلب الخالي من الشــرك والغل {قلْبٍ سليمٍ}.

- **فكُبْكِبوا فيها هُمْ والغاوون وجنودُ إبليسَ أجمَعون:** {كُبْكِبوا} أي أُلقوا فيها على وجوههم. مصير المعبودات الباطلة {هُمْ} وأتباعهم الضالين {الغاوون} وجنود إبليس كلّهم هو جهنم.
- **إذْ نُسَوّيكُمْ بربِّ العالمين:** اعتراف أهل النار بندم: لقد كان ضلالنا حين ساويناكم بالله رب العالمين.
- **فلوْ أنَّ لنا كرَّةً فنكونَ مِن المُؤمِنين:** أمنيتهم المستحيلة بالعودة {كرَّة} للدنيا ليؤمنوا.
- **كذَّبَتْ قومُ نوحٍ / عادٌ / ثمودُ / قومُ لوطٍ / أصحابُ الْأَيْكَةِ المُرسَلين:** نمط متكرر؛ ذكر تكذيب كل أمة لرسولها، واعتبار تكذيب رسول واحد هو تكذيب لكل المرسلين.
- **أخوهُمْ نوحٌ / هودٌ / صالِحٌ / لوطٌ:** وصف الرسول بأنه {أخوهُمْ} للتذكير بالقرابة والحرص وأنّه كفؤ بينهم. (شعيب لم يوصف بأنه أخو أصحاب الأيكة لسبب غير مذكور هنا، ولكن يظهر أنّه ليس منهم أو أنّهم قوم مختلطون).
- **إنّي لكُمْ رسولٌ أمينٌ / فاتَّقوا اللهَ وأطيعونِي / وما أسألُكُمْ عليهِ مِنْ أجْرٍ...:** جوهر دعوة كل الرسل: الأمانة، الأمر بالتقوى والطاعة، ونفي طلب الأجر.

- **واتَّبَعَكَ الأرْذَلون:** حجة الملأ لرفض الإيمان بنوح: أتباعك هم الفقراء والضعفاء {الأرْذَلون}، وفي هذا إحالة لسبب ورود كلّ هذه القصص، وهو أنّ قريشًا كانت تنتقص من شأن المؤمنين بمحمّد بينهم لا سيما من الموالي (اللاحقين بقبائل) أو العبيد (غير الأحرار).
- **وما عِلْمي بما كانوا يعملون... إنْ حسابُهُمْ إلا على ربّي:** رد نوح بأن علمه بالظواهر وحساب البواطن على الله. إن هنا بمعنى "ليس".
- **وما أنا بطارِدِ المُؤمِنين:** رفض قاطع لطلبهم طرد الضعفاء.
- **لتكونَنَّ مِن المَرْجومين:** تهديد قوم نوح له بالنفي وملاحقته بالحجارة أو بقتله بالرجم.
- **فافْتَحْ بيني وبينَهُمْ فتْحا:** دعاء نوح بأن يحكم الله بينه وبين قومه حكمًا فاصلًا.
- **في الفُلْكِ المشْحونِ:** السفينة {الفُلْك} الممتلئة {المشْحون}.

- **أتبْنونَ بكلِّ ريعٍ آيـةً تعبَثون:** إنكـار هود على قومـه بنـاءهم الصـــروح {آيـة} في الأمـاكن المرتفعـة {ريع} بطريقة عبثيّة.
- **وتتَّخِذونَ مصـــانِعَ لعلَّكُمْ تخلُدون:** اتخاذهم الحصـــون والقلاع {مصـــانِعَ} وهي كلّ ما يصـــنع، كأنهم يظنون أنها ستمنحهم الخلود.
- **وإذا بطَشْتُمْ بطَشْتُمْ جبّارين:** وصـف لقسـوتهم وشـدة ظلمهم عند البطش {جبّارين}.
- **إنْ هذا إلّا خُلُقُ الأوَّلين:** ما نحن عليه هو ما كان عليه الأولون.
- **أتُترَكونَ في مـا هـاهُنـا آمِنين:** اســـتفهام إنكـاري من صـــالح لقومه: أتظنون أنكم ســـتُتركون في هذا النعيم آمنين؟
- **طَلْعُها هضـــيمٌ:** {طَلْع} ثمر النخل. {هضـــيم} أي لين، نضيج.
- **وتَنْحِتونَ مِن الجبـالِ بُيوتًـا فـارِهين:** {فـارِهين} أي حاذقين ماهرين في النحت، أو متباهين.

- **ولا تُطيعوا أمرَ المُسرِفين الذينَ يُفسِدونَ في الأرضِ ولا يُصلِحون:** تحذير صالح لقومه من اتباع قادة الضلال {المُسرِفين} الذين صفتهم الإفساد.
- **إنّما أنتَ مِن المُسحَّرين:** أي ممن سُحِروا فلم يعودوا يعقلون.
- **ناقةٌ لها شِرْبٌ ولكُمْ شِرْبُ يومٍ معلومٍ:** {شِرْب} أي نصيب من الماء. تقسيم الماء بينهم وبين الناقة يومًا بيوم كآية.
- **فعقَروها فأصبَحوا نادِمين:** {عقَروها} أي قتلوها. نتيجة فعلتهم كانت الندم بعد فوات الأوان.
- **أتأتونَ الذُّكْرانَ مِن العالَمين وتذَرونَ ما خلَقَ لكُمْ ربُّكُمْ مِنْ أزواجِكُمْ:** إنكار لوط للفاحشة الشاذة: إتيان الذكور {الذُّكْرانَ} وترك النساء {من أزواجِكُمْ}.
- **بلْ أنتُمْ قومٌ عادون:** أي متجاوزون للحدود {عادون}.
- **لتكونَنَّ مِن المُخْرَجين:** تهديد قوم لوط له بالطرد.
- **إنّي لِعمَلِكُمْ مِن القالين:** {القالين} أي المبغضين بشدة. إعلان براءته من فعلهم.
- **إلّا عجوزًا في الغابِرين:** استثناء زوجة لوط من النجاة لأنها كانت {في الغابِرين} أي الباقين مع الهالكين،

وهذا يؤكّد أنّها لم تخرج وتلتفت كما تقول القصّة المتداولة بين الناس في إساءة واضحة لفهم الآية.

- **فساءَ مطَرُ المُنذَرين:** بئس المطر مطر الهلاك الذي أُنزل على القوم الذين أُنذِروا.
- **أصحابُ الْأَيْكَةِ:** {الأَيْكَة} هي الشجر الملتف، أو الشجرة الواحدة الملتفّة، وأصحابها هم قوم شعيب.
- **أوْفوا الكيْلَ ولا تكونوا مِن المُخْسِرين:** الأمر بإتمام الكيل والنهي عن التسبب بخسارة الناس الذين لا يوفون الميزان {المُخْسِرين}.
- **وزِنوا بالقِسْطاسِ المُستَقيمِ:** الأمر بالوزن بالميزان العدل {القِسْطاسِ المُستَقيمِ}.
- **ولا تبْخَسوا الناسَ أشياءَهُمْ:** لا تنقصوا الناس حقوقهم أو قيمة سلعهم.
- **ولا تعْثَوْا في الأرضِ مُفسِدين:** {تعْثَوْا} أي تفسدوا أشد الإفساد.
- **والجِبِلَّةَ الأوَّلين:** {الجِبِلَّة} أي الخليقة أو الأمم. اتقوا الذي خلقكم وخلق الأمم الأولى.
- **وإنْ نظُنُّكَ لَمِن الكاذِبين:** اتهامهم لشعيب بالكذب بناءً على الظن {نظُنُّكَ}.

- **فأسْـقِطْ علينا كِسَـفًا مِن السّـماءِ:** {كِسَـف} أي قطعًا. طلبهم للعذاب استهزاءً.
- **عذابُ يومِ الظُّلَّـةِ:** {الظُّلَّـة} نوع من العذاب كـان فيـه ظلّ، وكلمـة "يوم" تقولها العرب بمعنى حـادثـة وليس بالضـــرورة أن يكون يومًا واحدا، أي هو عذاب كان متعلّقًا بسحاب أظلّهم أو سوى ذلك.
- **وإنّـهُ لفي زُبُرِ الأوَّلين:** الضـــمير يعود لما في القرآن من معانٍ أو للبشـــارة بالنبي محمد، أي أنه مذكور في كتب الأولين {زُبُرِ الأوَّلين}.
- **أولَمْ يكُنْ لهُمْ آيةً أنْ يعلَمَهُ عُلماءُ بني إسـرائيل:** علم أحبار بني إسرائيل بواحد من هذين: مثل ما في الكتاب أو بالبشـارة بمحمّد، أليس فيه آية لقوم محمّد؟ والسؤال استنكاريّ.
- **ولو نزَّلْناهُ على بعضِ الأعجَمين فقرأهُ عليهِمْ ما كانوا بهِ مُؤمِنين:** بيان لشـــدة عنادهم؛ فلو نزل القرآن على غير عربي وقرأه قراءة صحيحة لما آمنوا به أيضًا.
- **كذلكَ ســـلَكْناهُ في قلوبِ المُجرِمين:** أي بســـبب ذلك الإعراض، أدخلنا التكذيب في قلوب المجرمين.

- **لا يؤمِنونَ بهِ حتى يرَوُا العذابَ الأليمَ:** لن يؤمنوا حتى يعاينوا العذاب.
- **فيأتِيَهُمْ بغْتةً وهُمْ لا يشــــعُرون:** يأتيهم العذاب فجأة {بغْتةً} وهم غافلون.
- **فيقولوا هلْ نحنُ مُنظَرون:** يتمنون الإمهال {مُنظَرون} بعد فوات الأوان.
- **أفبِعذابِنا يســتعجِلون:** اســتفهام إنكاري لطلبهم تعجيل العذاب.
- **أفرأيتَ إنْ متَّعْناهُمْ سنين ثمَّ جاءَهُمْ ما كانوا يوعَدون ما أغنى عنهُمْ ما كانوا يُمَتَّعُون:** لو أمهلناهم ومتعناهم سـنين، ثم جاءهم العذاب، فماذا سـتفيدهم تلك السـنون من التمتّع؟
- **وما أهلَكْنا مِنْ قريةٍ إلّا لها مُنذِرون ذِكْرى وما كُنّا ظالِمين:** سنة الله في عدم إهلاك القرى إلا بعد إرسال المنذرين وإقامة الحجة {ذكرى}، نفيًا للظلم.
- **وما تنزَّلَتْ بهِ الشــياطينُ، وما ينبَغي لهُمْ وما يســتطيعون، إنّهُمْ عن السّــمْعِ لمعزولون:** رد على اتهامهم بأن الشـياطين من الجنّ تنزلّت بالقرآن وأخبار الغيب؛ بنفي ذلك عنهم {وما تنزَّلَتْ}، وأنه لا يجدر

بهم ذلك {وما ينبَغي} ولا يقدرون عليه {وما يستطيعون}، وأنهم ممنوعون من استراق السمع {لمعزولون}.

- **فلا تدْعُ معَ اللهِ إلهًا آخَرَ فتكونَ مِن المُعذَّبين:** نهي للنبي (وللأمة) عن الشرك.
- **وأنذِرْ عشيرتَكَ الأقْرَبين:** الأمر ببدء الدعوة بالأقربين.
- **واخفِضْ جَناحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِن المُؤمِنين:** الأمر بالتواضع واللين مع المؤمنين. {اخفِضْ جَناحَكَ} كناية عن التواضع.
- **فإنْ عصَوْكَ فقُلْ إنّي بريءٌ ممّا تعمَلون:** إن عصاك الأقربون، فأعلن براءتك من أعمالهم.
- **وتقلُّبَكَ في الساجِدين:** أي ويرى حركاتك وتنقلك في صلاتك مع المصلين {الساجِدين}.
- **هلْ أُنبّئُكُمْ على مَنْ تنزَّلُ الشياطينُ؟ تنزَّلُ على كلِّ أفّاكٍ أثيمٍ:** هل تريدون أن تعرفوا على من تتنزّل "الشياطين"، إنّها تتنزّل على الكذّابين (أي إنّها لا تتنزّل على أحد).
- **يُلْقونَ السّمْعَ وأكثرُهُمْ كاذِبون:** هؤلاء الكذّابون من البشر الذين يدّعون أنّ الجنّ جاءتهم بما تستَرِقه من

أخبار السماء فيلقون لها سمعهم، وأكثر هذا القول كذب. وقد مرّ معنا إقرار القرآن على لسان الجنّ بأنّهم كانوا يقعدون مقاعد للسمع وأنّ ذلك توقّف بعد البعثة.

- **والشُّعراءُ يتَّبِعُهُمُ الغاوون:** أمّا الشعراء الذين يظنّ الناس أنّ الشياطين تتنزّل عليهم بالشعر، فهم يقولون هذا القول بمعنى "شطحان الشاعر"، وكانت العرب تعتقد بوجود شيطان للشعر مسؤول عن إلهام الشاعر، ويتابعهم على هذا الكلام قوم يظلمون بما يقولون، فهم يظنّون "الشيطان" ذاتًا لا حالة ذهنية كما قصد الشعراء.
- **ألَمْ ترَ أنّهُمْ في كلِّ وادٍ يهيمون وأنّهُمْ يقولونَ ما لا يفعَلون:** وصف لحال هؤلاء الشعراء وربّما أتباعهم معهم، والظنّ أنّ هذا متعلّق بالشعراء: أنّهم يهيمون (الهيام حالة من الضياع الذهنيّ) في كلّ وادٍ أي في كلّ أمر ومكان، وأنّ أقوالهم لا تطابق أفعالهم.
- **إلّا الذينَ آمنوا وعمِلوا الصّالِحاتِ وذكَروا اللهَ كثيرا وانتصَروا مِنْ بعدِ ما ظُلِموا:** استثناء للشعراء المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وأنّهم ينتصفون من الظلم الذي يحيق بهم، والظلم هنا ربّما يكون أنّ شعرهم من عند الشياطين.

- **وسيعلَمُ الذينَ ظلَموا أيَّ مُنقلَبٍ ينقَلِبون:** وعيد شديد للظالمين بأنهم سيعرفون أي مصير سيء {أيَّ مُنقلَبٍ} ينتظرهم.

مقالة السورة (الشعراء)

تفتتح السورة {طسم} بالإشارة إلى الأحرف التي يتكون منها {الكتاب المُبين}، ثم تخاطب النبي مواساةً له ومخففةً من حزنه الشديد على إعراض قومه عن الإيمان، مؤكّدةً له ألا يُهلك نفسه غمًّا {لعلَّك باخِعٌ نفسَك} بسبب ذلك، فالهداية بمشيئة الله ولو شاء لأنزل آية كونية قاهرة تخضع لها أعناق الجميع. لكن سنة الله اقتضت إرسال الذكر الذي يبادرهم الله به {مُحْدَثٍ} والذي يقابله أكثر الناس بالإعراض والتكذيب، وتتوعد هؤلاء المكذّبين بأن أخبار ما كانوا به يستهزئون ستأتيهم حتمًا {فسيأتيهِمْ أنباءُ}. وتلفت السورة نظرهم إلى الأرض وما أنبت الله فيها من كل صنف حسن {زوجٍ كريمٍ} كآية على قدرته، ولكن حال أكثر الناس هو عدم الإيمان، وتختم هذا المقطع التمهيدي بصفة الله التي ستتكرر مرارًا خلال السورة: {وإنّ ربَّك لهُوَ العزيزُ الرّحيمُ}.

ثم تبدأ السورة في سرد قصص الأنبياء كأمثلة على هذه السنة: تبدأ بنداء الله لموسى وتكليفه بالذهاب إلى قوم فرعون

الظالمين ودعوتهم للتقوى. يظهر موسى خوفه البشري من التكذيب وضيق الصدر وثقل اللسان، ويطلب مؤازرة أخيه هارون، ويذكر خشيته من القتل لثأر قديم {ولَهُمْ عليَّ ذنْبٌ}. يأتيه الرد الإلهي نافيًا لمخاوفه {كلّا}، ومؤكدًا المعية والنصرة {إنّا معَكُمْ مُستمِعون}. يذهب موسى وهارون إلى فرعون ويعلنان رسالتهما {إنّا رسولُ ربِّ العالمين} ويطلبان إرسال بني إسرائيل معهما. يرد فرعون بمنِّه على موسى بتربيته في قصره، ويذكره بحادثة قتله لإنسان ويتهمه بالحرابة. يعترف موسى بالفعلة لكنه ينسبها لضلاله قبل النبوة، ويذكر فضل الله عليه بالحكمة والرسالة، ثم يواجه فرعون بأن نعمة تربيته لا تبرر استعباده لبني إسرائيل. يسأل فرعون باستخفاف عن رب العالمين، فيعرفه موسى بأفعاله في الكون والناس: رب السماوات والأرض، ورب الآباء الأولين، ورب المشرق والمغرب، مستثيرًا عقول الحاضرين. يلجأ فرعون لاتهام موسى بالجنون ثم يهدده بالسجن إن اتخذ إلهًا غيره. يتحدّى فرعون موسى بأن يأتيه بآية مبينة، فيلقي عصاه فإذا هي ثعبان حقيقي، ويخرج يده فإذا هي بيضاء ناصعة. يتهم فرعون موسى أمام كبار قومه بأنه ساحر عليم يريد إخراجهم من أرضهم بسحره، ويستشيرهم، فيشيرون بتأخير أمرهما وجمع السحرة المهرة

لمواجهته، فهم أعلم بالسحر منهم، ويبدو أنّ شيئا ما وقع في قلب مستشاريه ووزرائه.

يُجمع السحرة في يوم معلوم ويُحشد الناس للمشاهدة، ويأمّل رجال فرعون قومه بالنصر، وأنّهم سينالهم نصيب من أجر السحرة إذا غلبوا. يسأل السحرة فرعون عن الأجر إن غلبوا، فيعدهم به وبالتقريب منه. يطلب موسى منهم أن يلقوا ما هم ملقون، فيلقون حبالهم وعصيهم ويقسمون بعزة فرعون أنهم الغالبون. يُلقي موسى عصاه فتبتلع إفكهم وسحرهم {تلْقَفُ ما يأفِكُون}. عندها، يُلقى السحرة ساجدين خاضعين للحق، معلنين إيمانهم برب العالمين، رب موسى وهارون. يقع فرعون في موقف محرج أمام كبار القوم فيتّهم السحرة بالتواطؤ وأن موسى كبيرهم، ويهددهم بالتقطيع والصلب، فيردون بثبات عجيب {لا ضَيْرَ} مؤكدين رجوعهم إلى ربهم ورجاءهم في مغفرته لكونهم أول المؤمنين، ومفضلين ما عند الله الباقي على قضاء فرعون الدنيوي الفاني.

ثم تنتقل القصة مباشرة (تاركةً جزءًا من القصّة) إلى الأمر لموسى بالإسراء ببني إسرائيل ليلًا مع الإخبار بأنهم مُتَّبَعون. يحشد فرعون جنوده، مُقللًا من شأن بني إسرائيل {شِرْذِمةٌ قليلون} ومظهرًا غيظه واستعداده {وإنّا لجميعٌ حاذِرون}. لكن تدبير الله كان أعظم، فأخرجهم الله من جناتهم وعيونهم وكنوزهم ومكانتهم، وأورثها (هي أو مثلها) بني

إسـرائيل. تبع فرعون وجنوده بني إسـرائيل عند شـروق الشـمس، فلما رأى كل جمع الآخر، دب اليأس في قلوب أصـحاب موسـى وقالوا {إنّا لمُدْرَكون} أي أنّ الجنود سيدركونهم. فرد موسى بيقين {كلّا إنَّ معيَ ربّي سيهديني}. فأوحى الله إليه أن يضرب البحر بعصاه، فانشق فكان كل جزء كالجبل العظيم {كالطَّوْدِ العظيمِ}. وقرّب الله فرعون وجنوده من مكان هلاكهم {وأزلفْنا ثمَّ الآخَرين}، وأنجى موسى ومن معه أجمعين، ثم أغرق الآخرين. وتُختتم القصة بالتعقيب المعتاد: {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ}.

بعد قصة موسى المفصلة، تأمر السورة النبي بأن يتلو على قومه خبر إبراهيم وحواره مع أبيه وقومه حول عبادة الأصنام التي لا تسمع ولا تنفع ولا تضر، وكيف حاجّهم بمنطق الفطرة السليمة، معلنًا عداوته لأصنامهم ومتوجهًا لرب العالمين الذي خلقه وهداه وأطعمه وشفاه وأماته وأحياه، والذي يطمع في مغفرته يوم الدين. ثم يدعو إبراهيم ربه أن يهبه الحكمة ويلحقه بالصالحين، وأن يجعل له ذكرًا حسنًا في الآخرين {لسانَ صدقٍ}، وأن يجعله من ورثة جنة النعيم، وأن يغفر لأبيه، وأن لا يخزيه يوم البعث، ذلك اليوم الذي لا ينفع فيه إلا القلب السليم. وتصور السورة مشهد أهل النار من الغاوين وجنود إبليس (والسياق يشير إلى قوم إبراهيم)

وهم يُلقون فيها {فكُبْكِبوا}، واعترافهم بضلالهم حين ساووا معبوداتهم برب العالمين، وتخاصمهم وتبادلهم اللوم، وأمنيتهم المستحيلة بالعودة للحياة الدنيا من أجل الإيمان، وتنتهي قصته أيضًا بالتعقيب: {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ}.

ثم تستعرض السورة بإيجاز وسرعة قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب مع أقوامهم (عاد، ثمود، قوم لوط، أصحاب الأيكة)، مع التركيز على ثوابت الدعوة (التقوى، طاعة الرسول الأمين، عدم طلب الأجر)، وأبرز انحرافات كل قوم وردودهم المتشابهة في التكذيب والاستكبار (اتهام نوح بأن أتباعه الأراذل، اتهام هود وصالح ولوط وشعيب بالسحر أو الكذب أو الجنون، تفاخر عاد بقوتهم وبنيانهم، بطش ثمود ومهارتهم في نحت الجبال، فاحشة قوم لوط، تطفيف قوم شعيب في الميزان وفسادهم)، ونهايتهم المحتومة بالهلاك بعد تكذيبهم لرسلهم، وتُختتم كل قصة من هذه القصص الخمس بنفس التعقيب المعهود: {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ}.

بعد هذا العرض التاريخي المكثف، تعود السورة لتؤكد على المصدر الإلهي للقرآن {وإنّهُ لَتنزيلُ ربِّ العالمين}، وأنه نزل به الروح الأمين على قلب النبي ليكون من المنذرين بلسان عربي واضح {مُبين}، وأن ما فيه من حكم وخبر موجود في

كتب الأولين {زُبُرِ الأوَّلين}، وأن معرفة علماء بني إسرائيل به (ما في الكتاب من أخبار أو حكم، أو بالنبيّ) آية كافية لقومه لو كانوا يعقلون. وتؤكد السورة شدة عناد المكذبين بأنهم لن يؤمنوا حتى لو جاءهم القرآن بلسان أعجمي، فالتكذيب متأصل في قلوب المجرمين ولن يزول إلا برؤية العذاب الأليم الذي سيأتيهم بغتة، وعندها سيتمنون الإمهال. وترد السورة على استعجالهم بالعذاب بسؤال بلاغي: لو متعناهم سنين طويلة ثم جاءهم العذاب، فهل سيغني عنهم ذلك المتاع شيئًا؟ وتذكر بسنة الله في عدم إهلاك القرى إلا بعد إرسال المنذرين للذكرى، نفيًا للظلم عنه تعالى.

وتنتقل الآيات الأخيرة لمواجهة اتهام المشركين بأن القرآن من إلقاء الشياطين، فتنفي ذلك بشكل قاطع {وما تنزَّلَتْ بهِ الشياطينُ}، مؤكدة أنه لا يجوز لهم فعل ذلك ولا يستطيعونه وأنهم معزولون عن استراق السمع. وتوجه النبي إلى الثبات على التوحيد {فلا تَدْعُ معَ اللهِ إلهًا آخَرَ}، والأمر بإنذار الأقربين {وأنذِرْ عشيرتَكَ الأقْرَبين}، والتواضع للمؤمنين {واخفِضْ جَناحَكَ}، وإعلان البراءة من عمل من يعصيه، والتوكل التام على الله العزيز الرحيم الذي يراه في كل أحواله {ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ}. ثم تفضح السورة حقيقة من تتنزل عليهم الشياطين: إنهم الكذابون الأثيمون {كلِّ أفّاكٍ أثيمٍ} أي أنّ الشياطين لا تتنزّل على أحد

على الحقيقة، ولكنّه الإفك والوهم، من الذين يتلقفون ما يظنّون أن الشياطين تسمعه وهم يكذبون. وتفرق بين هؤلاء وبين الشعراء، إذ كان يظنّ العرب أنّ الشعر من الشياطين، فالذين يأخذون هذا القول على محمل الحقيقة لا المجاز هم أهل الغواية، فهم (الشعراء أو أتباعهم) الذين يتسمون بالتقلب وعدم الصدق العملي {فِي كُلِّ وادٍ يهيمون * وأنّهُمْ يقولونَ ما لا يفعَلون}، وتستثني منهم المؤمنين الصالحين الذين يذكرون الله وينتصرون للحق بعد ظلمهم. وتختم السورة بوعيد حاسم للظالمين {وسيعلَمُ الذينَ ظلَموا أيَّ مُنقلَبٍ ينقَلِبون}.

المعنى الشمولي (الشعراء)

تُمثّل سورة الشعراء عرضًا تاريخيًا بانوراميًا لسنن الله في مواجهة التكذيب عبر قصص عدد من الأنبياء، مقدمةً من خلال ذلك تسلية وتثبيتًا للنبي محمد صلى الله عليه وسلم، وإنذارًا لقومه المكذبين، ودفاعًا عن طبيعة الوحي القرآني. تتمحور السورة حول فكرة أن الإعراض عن رسل الله والتكذيب بهم ليس أمرًا جديدًا، بل هو نمط متكرر في تاريخ الأمم، وأن عاقبة هذا الإعراض هي الهلاك والخسران، بينما النجاة والفلاح للمؤمنين.

يترسخ هذا المعنى من خلال البنية السردية القائمة على تكرار قصص الأنبياء (موسى، إبراهيم، نوح، هود، صالح،

لوط، شـــعيب)، وعرض الثوابت المشـــتركة في دعواتهم (التوحيد، التقوى، الأمانة، عدم طلب الأجر)، وتشـــابه ردود أفعال أقوامهم (التكذيب، الاســـتكبار، الاتهام بالســـحر أو الجنون، الاستهزاء بالضعفاء من الأتباع). اللازمة المتكررة بعد كل قصـــة {إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ} تؤكد على وجود العبرة الواضـــحة في كل قصـــة، وعلى أن قلة الإيمان هي الحالة الغالبة، وأن الله يتعامل مع هذا الواقع بعزّته في إهلاك المكذبين ورحمته (من لطف وتمكين وقدرة) في إنجاء المؤمنين وإرسال الرسل.

تنتقل الســـورة في ختامها من العبرة التاريخية إلى الواقع المعاصـــر للدعوة المحمدية، فتؤكد على المصـــدر الإلهي للقرآن {وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ}، وتنفي عنه شبهة الشعر أو الإلهام الشيطاني، مفرقة بين طبيعة الوحي الهادف للحق، وبين طبيعة الشـــعر الغالب عليه اتباع الهوى وعدم مطابقة القول للفعل، مع اســـتثناء المؤمنين الذين يلتزمون بالحق ويدافعون عنه. وتوجه السورة النبي إلى الثبات على التوحيد، والتركيز على دعوة الأقربين، والتواضع للمؤمنين، والتوكل على الله العزيز الرحيم، خاتمة بوعيد قاطع للظالمين بمصيرهم السيئ المحتوم.

مقالات القرآن العظيم 44 | مرونة البيان القرآنيّ وثبات المعنى

الحمد لله منزل الكتاب بالحق، هدىً وبيانًا للعالمين، الذي صاغ كلامه بلسان عربي مبين، تتعدد أوجهه وتتكامل معانيه، إظهارًا للحكمة وإعلاءً للذكر، والصلاة والسلام على من بُعث ليتمم مكارم الأخلاق، وعلى آله وصحبه ومن اقتفى أثره بإحسان.

أمّا بعد،

فإن الناظر في كتاب الله، متأملاً في آياته وسوره، لا سيما من خلال تتبع مسار نزولها التقريبي كما فعلنا في "تجديد البيان"، سيلاحظ ظاهرة فريدة في أسلوب الخطاب القرآني، وهي تكرار ذكر بعض الأحداث، وخاصة قصص الأنبياء والأمم السابقة، في مواضع متعددة من القرآن. غير أن هذا التكرار لا يأتي بصورة طبق الأصل غالبًا، بل كثيرًا ما نجد اختلافات في طول السرد، أو في زاوية التركيز، أو حتى في بعض الألفاظ والتراكيب المستخدمة لوصف الحدث الواحد أو القول الواحد، مع أنّه قول قيل في التاريخ مرّة واحدة، ولو كان المقصود الإخبار لأشكل علينا أي صيغة من تلك الصيغ هي الصيغة الحقيقية التي ليس فيها تعديل أو تركيز على جانب دون آخر.

قد يبدو هذا التنوع اللفظي في السرد المتكرر، للوهلة الأولى، مدعاة للحيرة أو حتى للشك في ثبات النص عند من لم يألف أساليب البيان العربي الرفيع أو لم يتأمل في طبيعة الوحي الإلهي. لكن القراءة المتأنية، المسترشدة بمنطق اللغة وسياقات النص، وبالفهم الذي أسسناه في مقال نلحقه بهذا الجزء، وهو رسالة بعنوان "خيرة النجعة في الأحرف السبعة"، تكشف أن هذه المرونة في البيان ليست نقصًا أو اضطرابًا، بل هي مظهر من مظاهر الحكمة الإلهية ودليل يعضد ما سيأتيك في رسالة خيرة النجعة وهو أن **المقصد الأسمى من كلام الله هو المعنى والهداية**، وأن اللفظ، وإن كان دقيقًا ومختارًا بعناية، هو قالبٌ مرن يخدم هذا المقصد الجوهري ويبرز جوانبه المختلفة حسب غرض كلّ قصّة في سياقها، وليس نقلا حرفيًّا لما دار في القصة التاريخية، ما حدا ببعضهم أن رأى أنّ هذه القصص رمزيّة. ونحن وإن لم نقل بذلك، نفهم دوافعه.

شواهد من القصص القرآني (حتى سورة الشعراء)

إن تتبع القصص المتكرر في السور التي مرت بنا حتى الآن يقدم شواهد متضافرة على هذا المبدأ:

1. **قصـــة ســـحرة فرعون وإيمانهم:** المثال الأبرز الذي يُســتشــهد به كثيرًا. ففي ســورة طه (20:70)، يأتي قولهم: {ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ}. أما في ســورتي الأعراف (121:7-122) والشــعراء (47:26-48)، فيرد القول: {ءَامَنَّــا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ * رَبِّ مُوسَـــىٰ وَهَٰرُونَ}. المعنى الجوهري للإيمــان واحــد في الموضـــعين، لكن الســـياق قد يوجه اختيار التقديم والتأخير؛ ففي ســـورة طه، حيث كان طلب موســـى لمؤازرة هارون حاضـــرًا في الأذهان {وأشـــرِكْهُ في أمري}، ناســب تقديم اســم هارون كإشــارة لتحقق أثر هذه الشـــراكة. بينما في الأعراف والشـــعراء، حيث التركيز الأكبر على المواجهة بين موســـى وفرعون، كان تقديم اسم موسى هو الأنسب. هذا التنوع اللفظي يبرز جوانب مختلفة للمعنى دون أي تعارض.

2. **قصـــة آدم وإبليس:** نجد اختلافات في طريقة عرض الحوار ومســتوى التفصــيل بين ســور الأعراف وطه وص. فصــيغة ســؤال الله لإبليس عن ســبب امتناعه تختلف قليلًا، وتفاصـــيل التوبة تُذكر بألفاظ الدعاء في الأعراف بينما يُشـــار إليها ضـــمنًا في طه. هذه الاختلافات في الصياغة والتفصيل لا تغير من جوهر

القصــة وعبرتها الأســاســية المتعلقة بالخلق والتكليف والابتلاء والاستكبار والعصيان ثم التوبة والرحمة.

3. **قصــص الأنبياء المتعددة (نوح، هود، صــالح، لوط، شــعيب):** عند مقارنة رواية قصــة أي نبي من هؤلاء في ســورة الأعراف مثلًا مع روايتها في ســورة الشعراء، نلاحظ اختلافات واضحة في طول القصة، والتركيز على جوانب معينة من دعوة النبي أو رد قومه، واســتخدام ألفاظ ومرادفات مختلفة لوصــف الحدث أو القول.

- فاتهام قوم نوح له في الأعراف (7:60) هو {ٱلضَّلَٰل ٱلْمُبِينِ}، بينما حجتهم في الشــعراء (26:111) هي {وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ}. كلا الاتهامين يعكس اســتكبار الملأ، لكن كل عبارة تبرز جانبًا مختلفًا من هذا الاستكبار.
- وفي قصة صالح، تُوصف الناقة في الأعراف (7:73) بأنها {ءَايَةٌ}، بينما في الشــعراء (26:155) يُفصَّل في آيتها العملية {لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ}.
- وعقاب قوم صــالح في الأعراف (7:78) هو {ٱلرَّجْفَةُ}، بينما لم يُذكر العقاب صــراحة في

الشـــعراء بعد ذكر عقر الناقة والندم، وإن كان مفهومًا ضمنًا من التعقيب الختامي.

- وفي قصـة شـعيب، يركز في الأعراف (7:85) على الأمر بالتوحيد وإيفاء الكيل والميزان وعدم بخس الناس أشـياءهم وعدم الإفسـاد والصـد عن سبيل الله، بينما في الشعراء (181-184) يركز بشـكل أكبر على تفاصـيل الأمانة في المعاملات الاقتصـادية الحياتية (الكيل، الوزن بالقسـطاس، عدم بخس الأشياء، عدم العثو في الأرض).
- هذه الاختلافات في التركيز والتفصـيل والألفاظ ليســت تناقضًــا، بل هي تنويع مقصــود يثري القصــة ويبرز جوانب متعددة منها بما يناســب سياق كل سورة ومقامها الخطابي.

إن هذا التنوع في أسلوب عرض القصص والحجج المتكررة في القرآن الكريم ليؤكد أن العبرة في كلام الله ليسـت بمجرد حفظ الألفاظ وترديدها كالببغاوات، بل بفهم المعاني والمقاصد التي تحملها تلك الألفاظ في ســياقاتها المختلفة. إن التركيز على {مواضـع الكلم} ومعاني القصـص والسـياقات، بدلًا من التشـبث بحرفية اللفظ بمعزل عن مقصـده، هو الذي يكشـف عن عمق الحكمة القرآنية وتكامل بيانه ووحدة رسالته.

رسالة: خيرَةُ النَجْعَة في الأحرف السبعة

الحمد لله مُســتحقّ حمده، منزل كتابه إلى عبده، الذي بشّــر وأنذر، وتلطّف ويسّر، وأفصح وأبان ملتزمًا شرط اللسان، فعليه أفضل الصلاة، وعلى أهله ومن والاه.

أمّا بعد،

فاعلم أنّ مســألة نزول القرآن الكريم على "ســبعة أحرف" كانت ولم تزل من المباحث الجليلة في كتاب الله العزيز، شــغلت أذهان العلماء، وأجهدت القرّاء، وتباينت فيها أنظار الباحثين، وأُفردت لها المصــنفات قديمًا وحديثًا، وبحثت فيها المرويّات خبرًا وحديثا. ومع كثرة ما كُتب وقيل، فإن الحاجة تظلّ قائمة إلى رؤيةٍ جليّة وفهمٍ مستبصر يكشف عن الحكمة والمعنى وراء هذا الاســم والمبنى، ويُبدّد ما قد يعلق ببعض الأذهان من حيرة أو إشــكال حول طبيعة النصّ القرآني وكيفيّة نزوله وتلقّيه.

ولمّا كان كتاب الله عند المؤمنين به حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، الذي لا تنقضــي عجائبه ولا يَخْلَقُ على كثرة الرد، فإن السعي في فهم دقائقه والغوص في بحار معانيه وحِكمه هو من أشــرف المقاصــد وأنبل الغايات. وقد رأيتُ أن أدلي بدلوي في هذا الباب، راجيًا من الله التوفيق والسداد، في هذه الرسالة التي أسميتُها" **:خَيْرَةُ النَجْعَة في**

الأحرف السبعة"، أبتغي بها، بعد عون الله، أن أعطيك زبدة القول وأعفيك من زبَده، وأن أقدم رؤية تكاملية تستند إلى صحيح المنقول وصريح المعقول، وتكشف عن أمر لم يخلقه النسيان، رغم بقائه طيّ الكتمان. فقد بقيت شفرته كامنة في اللغة، إلى أن ييسّر الله عقلا منفتحًا يلتقطها. فأسأل الله أن أكون أنا من أجلّيها لك، كما تتجلّى شمس رابعة النهار.

واعلم أنّ الحديث في هذا المبحث ذو إشكال، ويقتضي الانقطاع والاتّصال، وإنّني لمّا رأيت ما جرّه عليّ التفكير فيها من تقليب الأقوال، عزمت أن يكون مطلع كلامي مشابهًا لكلام أوائل المصنّفين، لكي يكون حاجزًا يذبّ الجهلة والمشغّبين، فلا يصل لبّ القول، إلّا من كان له عقل، وإنّني أعزم على تيسيره لاحقًا للعامّة والخاصّة، لكنّني إذ أكتب هذه الرسالة، أبتغي منها أن أدوّن ما عرض من فكر، لأطلع عليه أهل الذكر، ليروا كيف أن هذا التنوع في الأحرف كان مظهرًا من مظاهر الرحمة الإلهية، ودليلاً على أن المقصد الأسمى من الكلام الإلهي هو **الهداية والمعنى**، وأن مرونة اللفظ وتعدّد أوجه الأداء جاءت خادمةً لهذا المقصد الجليل، ولم تكن لأجل إجهاد الأمّة في شروط القراءة والرواية. سائلًا المولى عز وجل أن يجعل فيها نفعًا وهداية، وأن يفتح بها بصائر وقلوبًا، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

حديث الأحرف السبعة

إن العمدة في هذا الباب هو ما استقر في دواوين السنة. وأشهر ما يُروى في ذلك وأصحّه حسب شرط المحدّثة، حديث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، كما في الصحيحين وغيرهما، إذ قال: "سَمِعْتُ هِشَامَ بْنَ حَكِيمٍ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاسْتَمَعْتُ لِقِرَاءَتِهِ، فَإِذَا هُوَ يَقْرَأُ عَلَى حُرُوفٍ كَثِيرَةٍ لَمْ يُقْرِئْنِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَكِدْتُ أُسَاوِرُهُ فِي الصَّلَاةِ، فَتَصَبَّرْتُ حَتَّى سَلَّمَ، فَلَبَّبْتُهُ بِرِدَائِهِ، فَقُلْتُ: مَنْ أَقْرَأَكَ هَذِهِ السُّورَةَ الَّتِي سَمِعْتُكَ تَقْرَأُ؟ قَالَ: أَقْرَأَنِيهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقُلْتُ: كَذَبْتَ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ أَقْرَأَنِيهَا عَلَى غَيْرِ مَا قَرَأْتَ. فَانْطَلَقْتُ بِهِ أَقُودُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقُلْتُ: إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ بِسُورَةِ الْفُرْقَانِ عَلَى حُرُوفٍ لَمْ تُقْرِئْنِيهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَرْسِلْهُ، اقْرَأْ يَا هِشَامُ". فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقِرَاءَةَ الَّتِي سَمِعْتُهُ يَقْرَأُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ". ثُمَّ قَالَ: "اقْرَأْ يَا عُمَرُ". فَقَرَأْتُ الْقِرَاءَةَ الَّتِي أَقْرَأَنِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ، إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ."

هذا الحديث، ومعه أحاديث أخرى صحيحة السند في المعنى ذاته (كحديث أبيّ بن كعب وغيره)، يضعنا أمام حقائق أساسية لا يمكن تجاوزها:

1. **ثبوت التنوع :**وجود أوجـه متعـدّدة في قراءة النص القرآنيّ الواحد كـانـت معروفـة ومُقَرأة من قِبـل النبي صلى الله عليه وسلم نفسه.

2. **استشكاله على الصحابة :**أنّ هذا التنوّع استشكل على الصحابة أنفسهم.

3. **مصـدر التنوّع :**إقرار النبيّ للقراءة التي يسـمع، بقوله: (“كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ”)، أي أنّ هذا الحرف وذاك الحرف من عند الله.

4. **الحكمـة من التنوّع :**العلـة الصـــريحـة لهـذا التنوع هي **التيســـير** ورفع الحرج عن الأمـة (“فَـاقْرَءُوا مَـا تَيَسَّرَ مِنْهُ”).

فهذا الحديث هو المنطلق والمرتكز، وهو الشـاهد الأول على أن الوحي القرآني نزل بطريقة تتسـم بالمرونة والسـعة، وأن هذه المرونة مقصـودة لذاتها تحقيقًا لرحمة الله بعباده وحكمته في مخاطبتهم.

مرونة البيان الإلهيّ

لفهم مراد النبي صـلى الله عليه وسـلم بقوله “سـبعة أحرف”، لابد من النظر في معنى كلمة “حرف” في لغة العرب، وفي دلالة العدد “سبعة.”

كلمة "حرف" في اللغة تأتي لمعانٍ متعددة، منها: اللفظ، والطرف، والجانب، والوجه، والطريقة، وقيل اللهجة وهو قول ضعيف. ويُقال: فلان على حرفٍ من أمره، أي على طريقة أو وجهة. ويبدو أن المعنى الأنسب في سياق الحديث هو اللفظ. فالأحرف السبعة هي أوجه وطرائق متعدّدة وألفاظ مختلفة أُذِن بقراءة القرآن بها.

أما العدد "سبعة"، فقد استعملته العرب كثيرًا للدلالة على **الكثرة والتمام والسعة**، وليس بالضرورة للعدد الحسابي المحصور بين الستة والثمانية. ونظائر ذلك في القرآن واللغة كثيرة (كقوله تعالى: "وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ"، وقولهم: سبع سماوات، وسبع أراضين، وغيرها مما يُراد به التكثير والمبالغة في السعة والكمال). فالأقرب للعقل واللغة أن يُفهم قوله "سبعة أحرف" على أنّه إشارة إلى **السعة والتنوّع والكمال في أوجه القراءة الميسّرة** التي أُنزل بها القرآن، لا حصرها في سبعة أوجه عدديّة لا تزيد ولا تنقص.

وعليه، تكون حقيقة الأحرف السبعة أنها تمثل **مرونة وتعدّدية في أوجه الأداء اللفظيّ والصوتيّ للقرآن**، سمح بها الله تعالى تيسيرًا على عباده، لتناسب اختلاف ألسنتهم وقدراتهم، ولتُظهر جانبًا من ثراء اللغة العربيّة الّتي نزل بها القرآن. هذه المرونة في البيان هي مظهر من مظاهر **كمال**

العلم الإلهيّ بأحوال الخلق، و**كمال الحكمة الإلهيّة** في إيصال الرسالة بأيسر السبل وأقوَمِها.

حفظ المعنى و"مواضع الكلم"

إنّ القول بالمرونة والسَعة في "حرف" القرآن لا يعني بحال من الأحوال فوضى في النص أو اضطرابًا في دلالته. فهذه المرونة الّتي مثّلتها الأحرف السبعة كانت محكومة بضابط إلهيّ صارم، وهو **الحفاظ التامّ على جوهر المعنى والمقصد الأصليّ من الآيات** .لم يكن التنوّع المأذون به تنوعًا يؤدّي إلى التضادّ، أو التناقض، أو تغيير الحُكم أو الخبر، بل كان تنوّعًا يخدم المعنى الكلّيّ الأصيل ولا يخرج عنه.

هنا يتجلى الفارق الجوهري بين التنوع المسموح به في "الأحرف السبعة"، وبين "التحريف" المذموم الذي نهى الله عنه وحذّر منه، كما في قوله تعالى عن بعض أهل الكتاب (أي الأقوام التي لها كتب)" **:يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ** "(المائدة: 13)، وقوله" **:يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ** "(المائدة: 41). التحريف المذموم هو العبث المتعمّد **بالمعنى والسياق**، وإخراج الكلام عن مقصده الأصليّ، وتبديل كلام الله إرضاءً للأهواء أو إخفاءً للحقّ. أما الأحرف السبعة، فكانت أوجهًا متعدّدة للمعنى نفسه، نزلت من عند الله، وقيل إنّ غرضها حفظ المعنى وتيسير اللفظ.

فالمقصد الأسمى من إنزال القرآن هو **الهداية والبيان** ("هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ"). وهذه الهداية تكمن في **المعاني والمقاصد** التي تحملها الآيات. أما "الحرف" أو اللفظ فهو الوعاء والقالب الذي يحمل هذا المعنى. وقد اقتضت حكمة الله ورحمته أن يكون هذا الوعاء مرنًا متعدّد الأشكال (الأحرف السبعة: أي الألفاظ الكثيرة) ليضمن وصول المعنى الهادي إلى أكبر عدد من الناس بأيسر الطرق، دون أن يتأثّر جوهر الرسالة. فالأولويّة دائمًا للمعنى والمقصد، والشكل اللفظيّ يخدم هذا المقصد ولا يلغيه أو يعارضه.

القرآن ذكرٌ مُحدَث

لفهم أعمق لكيفية نزول القرآن بهذه المرونة (الأحرف السبعة)، لا بد من تأمل طبيعة الكلام الإلهي المنزل نفسه. يصف القرآن الكريم نفسه في مواضع بأوصاف تلقي ضوءًا على كيفية تلقي الناس له. يقول تعالى" **:مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ "**(الأنبياء: 2). وصفُ الذكر (وهو القرآن أو الوحي) بأنه **"مُحدَث "**يشير إلى أنّه أمر يتجدّد إتيانه للناس، يأتيهم شيئًا فشيئًا، كأمر أُحدِث وأُنشِئ ووصل إليهم في زمن معيّن.

هذا الوصف القرآنيّ يتوافق مع الفهم القائم على **التنزيه المطلق لله تعالى**؛ فالله هو الأوّل الذي ليس قبله شيء، وهو الخالق لكلّ ما سواه. وأفعاله تعالى، ومنها فعله للكلام وتكليمه لأنبيائه، هي أفعال تقع بمشيئته وقدرته في الوقت الذي يريده، فإذا قيل إنّ الكلام صفة المتكلّم، فالمعنى هنا قدرته على الكلام، وصفته بأنّه ذو كلام، لا أنّ ما قال هو صفته، فهو يحدثه إحداثًا، وليس للمحدث أن يكون قديمًا، فهذا ممّا يرفضه العقل، ويجرّ أنواع الخبل على من قال به. فالكلام الإلهيّ المنزل على الرسل هو **فعل من أفعال الله الحكيمة**، هو **إحداث وإيجاد** للأصوات والحروف والكلمات الدالّة على مراده وأمره ونهيه وهدايته، فكلماته ليست صفات قديمة أزليّة معه قد تماثله في القدم وتخدش كمال توحيده، فالصحابيّ زيد قد ذكر في القرآن كما ذكر أبو لهب، واسم أيّ منهما ليس متّصفًا بالقِدم، ولا يجوز الاعتقاد بذلك في أي حال من الأحوال .

عندما نفهم القرآن، هذا الذكر الحكيم، على أنه كلام الله الذي **أحدثه وأنزله** لهداية خلقه، تصبح مسألة الأحرف السبعة مفهومة تمامًا في إطار الحكمة الإلهيّة في الخلق. فالله تعالى، بعلمه المحيط وقدرته المطلقة وحكمته البالغة، **أحدث هذا الذكر وصاغه** بطريقة تسمح بهذا التنوّع اللفظي (الأحرف السبعة: الألفاظ الكثيرة)، لتكون هذه المرونة في

الصـــياغة جزءًا لا يتجزأ من حكمة إنزاله، وتيســـيرًا على عباده في تلقّيه وفهمه والعمل به. فالمرونة ليست طارئة على النصّ، بل هي جزء من كيفية إحداثه وإنزاله الأوّل.

كلمة الله وكلامه

إنّ الله إذ وصف المسيح عيسى بن مريم قائلا" **:إنّما المسيح عيســى ابن مريم رســول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه** "النســاء:171، ترك لنا دليلًا أنّ الكلمة ليســت صــفة قائلها، فالمســيح إســلاميًّا ليس أزليًّا مع أنّه كلمة الله، وليس خالدًا مع أنّه كلمة الله، فهو ذاته يقول" **:والســـلام علي يوم ولـدت ويوم أموت ويوم أبعث حيـا** "مريم:33، فهو يموت بمنطوق القرآن، والأزليّ الأبديّ لا يموت بمقتضى العقل.

هكذا نعلم أنّ ما أشـــكل على الناس في مســـألة القراءات والحروف، وأنّ ما أشـــكل عليهم في ما ســـمّي محنة خلق القرآن، ومـا لحق ذلـك من مطـاعن على الوحي بـأنّـه غير صـــالح لكلّ زمان ومكان، وأنّ ما أشـــكل عليهم من كون المسـيح كلمة الله، وما أشـكل عليهم من مقولة "الكلام صـفة المتكلّم"، إنّما هي كلّها بلا اسـتثناء مشـكلات يمكن حلّها إذا أضيفت لبعضـها بعضًا، وإنّها إذا أضيفت إلى بعضـها وسلّمنا بها، يقضي الفهم السليم لها بما يأتي:

- القرآن ذكر محدث من الله

- هذا القرآن نزل بكلمات متنوّعة (حروف سبعة)
- صفة الله بالكلام قديمة (أزليّة قدرته على الكلام)
- المسيح مخلوق وهو كلمة الله
- القرآن ثابت بمعناه لا يتبدّل

إنّ هذا لممّا تدركه العقول ولا تكاد تجد من يعارضـــه، فهو كلام يشير له صحيح النقل وصريح العقل.

أمثلة من التنوّع القرائي المعتبر

تُعد القراءات القرآنية المتواترة، التي حفظت لنا جزءًا من التنوّع الّذي أذنت به الأحرف السبعة واحتمله الرسم القرآنيّ، ثمّ من بعده الرســم العثمانيّ، خير شـــاهد على هذه الحكمة الإلهيّة في صياغة كلامه. ولنذكر بعض الأمثلة التي توضح كيف يخدم تنوع "الحرف" وحدة "المعنى" ومقصد الهداية:

- **﴿مَـالِـكِ يَوْمِ الـدِّينِ﴾ / ﴿مَلِـكِ يَوْمِ الـدِّينِ﴾ (الفـاتحـة: 4) :**هنا، أحدث الله كلامه بحيث يحتمل هذين الوجهين المتكاملين. فـــــ"مالك" تبرز تمام التصـرف والملك، و"ملك" تبرز تمام الســلطان والأمر. كلاهما يعظّم الله ويصـــف هيمنته المطلقة يوم الجزاء، وتعدّد اللفظ هنا يثري المعنى ويوسّـــع دائرتــه في نفس القــارئ والمستمع، دون أيّ تعارض.

- **﴿فَتَبَيَّنُوا﴾ / ﴿فَتَثَبَّتُوا﴾ (الحجرات: 6) :**كلا اللفظين، اللذين وردا في قراءة هذه الآية، يؤدّيان إلى مقصد عمليّ واحد وهو وجوب التحقّق وعدم التسرّع. يؤكّد الله تعالى، بصياغته للآية بهذا الشكل المحتمل للوجهين، على أهمّيّة هذا المقصد من زاويتين متقاربتين (طلب الوضوح وطلب اليقين)، ممّا يعزّز الأمر بالتحرّي ويوضح أبعاده المختلفة.

- **﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ...﴾ / ﴿...قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ...﴾ (آل عمران: 146) :**قراءة "قاتَلَ" (بصيغة الفعل) وقراءة "قُتِلَ" (بصيغة المبني للمجهول) تقدّمان معنيين متكاملين في سياق الحثّ على الثبات والصبر. فقراءة "قاتل" تبرز ثبات الأتباع الربّانيّين وجهادهم مع نبيّهم، وقراءة "قُتِلَ" تبرز تضحيتهم واستشهادهم في سبيل الله. وكلاهما يحثّ المؤمنين على الاقتداء بهؤلاء الربّانيّين في صبرهم وجهادهم وتضحيتهم، والمعنى العامّ للآية (الحثّ على الثبات وعدم الوهن) يتأكّد ويتعزّز بكلا القراءتين.

هذه الأمثلة غيض من فيض، وهي تُظهر كيف أن التنوع في "الحرف" لم يكن عشوائياً، بل كان جزءًا من **حكمة الله في إحداث كلامه** وصياغته، بحيث تخدم هذه الأوجه المتعدّدة

المعنى الأصـليّ وتيسّـر فهمه وتبرز جوانبه المختلفة، ومنها ما ظاهره التناقض من مثل "لا أقسم"، و"لَأقسم"، وللحقّ فإنّ للتناقض وإن كان ظاهريًّا صـوته الواضـح في بيان المعنى، فهنا توضّـح قراءة "لأقسم"، أنّ أختها "لا أقسم" هي ضـرب من ضروب القسم، فالقسم الحريّ به أن يُنفى، لهو ذاته القسم الحريّ به أن يثبت، إذ إنّ ما صـرّحت أنّني لا أقسـم به، إنّما هو ممّا يقسم به لعظمته عندي وجلاله.

ملّة إبراهيم والشرائع الهادية

إن مبدأ "ثبات الأصل وتنوع الفرع" الذي رأيناه في الأحرف السـبعة، يجد صـداه الأوسـع في تاريخ الرسـالات الإلهيّة. فالقرآن الكريم يؤكّد على أنّ دين الله في جوهره واحد، قال تعالى" **:إنّ الدين عند الله الإسـلام"**، فكان هذا عن الإسـلام بمفهومه الشـامل، وهو الدين الّذي يتجذّر في **"ملّة أبيكم إبراهيم "**حنيفًا، أطلق علينا اسـم **"المسـلمين من قبل وفي هذا "**(الحج: 78). هذا الأصل، المتمثّل في التوحيد الخالص ومكارم الأخلاق الأسـاسـيّة الّتي يدرك العقل حسـنها، هو القاسم المشترك بين جميع الرسالات السماويّة.

ولكن، مع وحدة هذا الأصـل الجوهريّ، اقتضـت حكمة الله وعدله أن تختلف **الشـرائع والتفاصـيل العمليّة (الشـرعة والمنهاج)** الّتي **أحدثها وأوحى بها** لكلّ أمّة، بما يتناسـب مع

ظروفها الزمانيّة والمكانيّة وحاجاتها المتغيّرة، كما قال تعالى" :**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِـرْعَةً وَمِنْهَاجًا** "(المائدة: 48). فهذا التنوّع في الشرائع لم يكن تناقضًا، بل كان تكييفًا حكيمًا للفروع العمليّة مع الحفاظ على الأصل الواحد، تمامًا كما أنّ التنوع في الأحرف كان تكييفًا حكيمًا للشكل اللفظيّ مع الحفاظ على الأصل الواحد للمعنى. إنّها سنّة إلهيّة واحدة في التواصل مع الخلق: ثبات في الغاية والمقصد، ومرونة وحكمة في الوسيلة والشكل، وكلّ ذلك صادر عن إرادة واحدة وعلم محيط وحكمة بالغة.

العقل والعرف والوحي

في إطار هذا الفهم لطبيعة الوحي ومرونته وتفاعله، تتّضح العلاقة التكامليّة بين الوحي والعقل والعرف الصحيح:

- **العقل أداةً للتمييز :**لقد منح الله الإنسان العقل ليكون أداة للتمييز بين الحسن والقبيح، والعدل والظلم، والمصلحة والمفسدة، وقد قبل الله العقل حَكَمًا على رسالته إذ نادى بالناس "أفلا يعقلون". ثمّ إنّه أقرّ العرف، وأمر رسوله أن يأمر به، فانتقى من الأعراف أحسنها فعمّمه، **فالعرف** المأمور به هو ما استقرّ بين الناس وكان موافقًا لمقتضيات العقل السليم والعدل

والإنصـــاف، ولم يكن فيه ظلم أو جهالة أو مخالفة للمصالح الحقيقيّة.

- **الوحي مرشـدًا ومؤكّدًا ومفصّـلًا :**يأتي الوحي الإلهيّ (هذا الذكر المُحدَث) ليؤكّد ما أدركه العقل الصـــحيح من قيم ومبادئ، ولينير له الطريق فيما قد يعجز عن إدراكه وحده (كالتفاصيل التعبّديّة والغيبيّة)، وليفصّل له الأحكام التي تضمن العدل والمصلحة. وعندما يأمر الله بـــــ **"العرف "**في قوله: "خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ" (الأعراف: 199)، فهو يأمر بكل ما هو **معروف بالحسن والصواب عقلاً**، ويشمل ذلك الأعراف والممارســات الاجتماعية التي تتّفق مع العقل والعدل والمصلحة.

- **منهجيـة التعامـل مع الأعراف والتمييز بين بـاطلهـا وصـحيحها :**الوحي، بحكمته وعدله، تعامل مع أعراف النـاس بمنهجيـة دقيقـة :**فـأقرّ** مـا وافق العقـل والعـدل منها، **وهذّب** ما احتاج إلى تهذيب وإصـلاح، **وأبطل** ما كان مناقضًـا للتوحيد أو العدل أو المصـلحة (كالشـرك والظلم والربا والوأد). وقضـــاء حكماء العرب العقلاء كعـامر بن الظرب في مســـألـة الميراث، أو ميراث الخنثى، يُعدّ مثالاً على اجتهاد عقليّ توصّـــل إلى حكم

عادل يتّفق مع المصلحة، وهو ما قد يقرّه الوحي لاحقًا أو يأتي بما يوافقه، مظهرًا التناغم بين العقل الصريح والنقل الصحيح. وقوله تعالى "لِكُلٍّ جَعَلْنَا **مِنكُمْ** شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا"، إذ أخّر كلمة منكم، يؤكّد أنّ هذه الشرائع، الّتي جعلها الله وأحدثها، كانت **مناسبة لهم وفي سياقهم** "منكم"، مراعاةً لأحوالهم وظروفهم، تحقيقًا للعدل والمصلحة لهم.

فالهداية الحقّة تتحقّق بتكامل الوحي المنير مع العقل السليم، وإلّا فإنّنا أمام تحريف للكلم "من بعد مواضعه"، وهذا التكامل هو الّذي يميّز العرف الصحيح من الفاسد، ويضبط مسيرة الإنسان نحو الخير والصلاح.

ما فيه رشاد العباد

إن هذه النظرة التكاملية لقضية الأحرف السبعة، المستندة إلى أصول العقل والعدل والتوحيد، تضعنا أمام فهم أعمق لحكمة الله البالغة في تنزيل كتابه. فالأحرف السبعة ليست مجرد تنوع لغويّ أو لهجيّ عابر، بل هي **مظهر من مظاهر الحكمة والرحمة والتيسير في كيفيّة إحداث الله لكلامه** وإنزاله، بما يضمن وصول **معناه الهادي** إلى قلوب الناس وعقولهم بأيسر السبل، مع الحفاظ التامّ على هذا المعنى الجوهريّ.

هذا الفهم يربط بين النص القرآني وتاريخ الوحي، ويكشف عن سنة إلهيّة مطّردة في الجمع بين وحدة الأصل وتنوّع الفرع، ويبرز التكامل بين الوحي المنزل والعقل المستنير. إنّه يدعونا إلى تجاوز الجدل حول أشكال الحروف وظواهر الألفاظ، إلى الغوص في بحار **المعاني والمقاصد** الّتي هي غاية التنزيل، وإلى إعمال **العقل** أداةً شريفةً منحنا الله إياها لفهم دينه وكتابه، والسير على طريق **توحيده والعدل مع خلقه** الذي هو جوهر ملّة أبينا إبراهيم ومنهج الرسل أجمعين.

وإنّه بالقياس على ما سبق، يجوز لمن أوتي العقل والأمر والعلم بمقاصد الوحي، أن يحرّم فعلًا لم يكن متاحًا أيّام الرسالة الأولى، فلم يتطرّق إليه الوحي، لأنّه بعيد عن العبث واللغو، فلا يقول ما لا يكون مفهومًا لأهل زمانه، ويجوز لذلك الذي أوتي العقل والفهم والأمر أن ينظر فيما فيه صلاح الناس من أفعال فيأمرهم بها، ويكون ذلك داخلًا في التكليف، ولذلك قال بعض أهل العقل بالتحسين والتقبيح عقلًا، وبإعفاء الناس من أمور جاءت نقلًا، فاختلاف أحوال الزمان والعباد قاض بتنوّع سبل الرشاد، وإنّ المسافة بين شرعة عيسى وموسى جاءت بسبب المسافة بين قوم عيسى وقوم موسى، وإنّ بيننا وبين أيّام الرسالة الأولى مسافة أكبر من تلك التي بينهما، وإنّ الحكم بأمر في القرآن اختلف باختلاف أحوال

ذلك الزمان، فالشـــرعة والمنهاج المطلوبان هما ما بني على مصـــالح نعرفها، يقرّها المصـــدّق والمكذّب، كما أقرّ كلاهما من قَبِـل مكـارم الأخلاق من الطرفين، وهي الّتي جـاءت الرســـالة تتمّة لها، وكأنّها هي جلّ الأمر، والرســـالة زيادة عليه.

نسـأل الله تعالى أن يهب السـامع قلبًا يبصـر به، فيعلم أنّنا ما قلنا ما قلنا، إلّا لحلّ إشكالات واردة فرضت نفسها، ولم يكن لنا ما كان لأسـلافنا الذين قهروا عقولهم فأجبروها على ما لا تقبل، ونسـأله أن يهبنا جميعًا فهمًا سـديدًا لكتابه، وأن يجعلنا ممن يسـتمعون القول فيتّبعون أحسـنه، وأن ينفعنا بما علّمنا، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل.